

اعلام العرب
(١٣٣)

ابن سينا

القرن العشرين

تأليف: نسيم مجلى



الهيئة العامة للكتاب

١٩٨٨

١٢٢

ابن سينا

المفكر العشريني

تأليف: نسيم مجلى

الاخراج الفنى : جرجس ممتاز

كلمة لا بد منها

ابن سينا القرن العشرين

« ابن سينا القرن العشرين » هو عنوان مقال ممتاز للدكتورة نعمان أحمد فؤاد بصحيفة الأهرام بتاريخ ٢ سبتمبر سنة ١٩٧٧ عن محمد كامل حسين .

وقد اخترته عنوانا لهذه الدراسة ، لأنه أكثر الاسماء دلالة على فكر صاحبه ولأن محمد كامل حسين هو الذى اختار « ابن سينا » ليكون اسما مستعارا يوقع به مقالاته الأولى فى الثلاثينات . وكذلك لوجود كثير من الشبه بين كامل حسين وبين الفيلسوف المسلم الكبير الذى عاش فى القرن الحادى عشر الميلادى (١٩٨٠ - ١٠٣٧) .

كان ابن سينا فيلسوفا وعالما وطيبيا ، لعب دورا كبيرا فى نشر تراث الفلسفة والعلوم الاغريقية بين العرب ومن خلالهم فى أوروبا وقد ترك أثرا كبيرا بين الأوربيين فنشروا أكثر مؤلفاته باللغة العربية ، وترجموا أكثرها الى لغاتهم .

وقد جاهد ابن سينا فى سبيل تعزيز التفكير العقلانى وتطوير العلوم التطبيقية والرياضية وحارب الخرافات فى ميدان الفكر والعقيدة .

وقد جمع ابن سينا في فلسفته بين تيارى المادية والمثالية
الأرسطية . فقد أقر بخلود المادة باعتبارها أصل التنوع الكبير
بين الأشياء الفردية ، كما أثبت بالبرهان العقلى أن للكون الها
كاملا هو علة كل ما عداه من موجودات علوية وسفلية .

وهو ما أثبته كامل حسين على أساس نظرية التطور ولعل
في هذا كله تكمن دلالة العنوان .

نسيم مجلى

تقديم

بقلم الدكتور حسين فوزى

هذا كتاب يكشف لى عن سر من أسرار البلاغة فى معنى الاستشعار بعبقريه شخص ما من أول أمره ، أو بعد قليل من لقائه ، وقيام صداقة بينه وبين كاتب هذه السطور كتاب الأستاذ نسيم مجلى تحليل بليغ فير لعبقريه محمد كامل حسين ، يتناول أهم مؤلفاته بالفحص والشرح والابانة عما فيها من فكر عميق ، مصبوغ فى أسلوب هو الجزالة بعينها . فلا هو استعراض لغوى ، ولا تألق نحوى . وانما ذلكم البناء الشامخ يقوم على منطق علمى .

استعدت فى هذا الكتاب مر الأعوام الستين التى اقضت على أول لقاءى بكامل حسين . وما صدر له فيها من مقالات وكتب حتى حملت نعشه فى ٧ مارس ١٩٧٧ .

وموضوع عجبى اليوم أن اللقاء البكر الأول البكالوريا سنة ١٩١٧ كان منطلق صداقة ستين عاما . وان ما يستعرضه نسيم مجلى فى كتابه الصادق الأمين ، عرفته فى وقته وكان تحقيقا لما توسسته فى محمد كامل حسين وحتى قبل أن ينشر أى كتاب فقد كان حديثه وكانت رسائله فى خلال العطلة

الدراسية ، وكان سلوكه فى ثورة ١٩١٩ ، وما بعدها حىال أى
حدث اجتماعى أو سىامى أو علمى ، كل ذلك أنار لى مستقبل
هذا الصديق الأعظم ، وكأنى أرى المستقبل رؤى العين •

ومع هذا ، أشهد يوم وجدت كتاب « قرية ظالمة » ينتظر
عودتى من الخارج ، عند المرحومة والدتى ، وانصرفت الى
مطالعة دون توقف ، انه بهرنى وهز كيانى • وأمر هذا عجب ،
فكل ما خبرته فى كامل حسين وقرأت له كان مثار اعجابى ،
على أساس أن نجاح المفكر والكاتب والخطيب هو واحد
من مسلماتى • فكمال حسين عندى يمثل الكمال انسانا فى ايمانه
العميق ، وسلوكه السامى ، ومثله العليا ، ولم يكن هذا كلاما
ولا تخرصا بل كانت مصاييح هدى لكل من عرف صديقى
وعرك حياته •

لقد فاق انبهارى بكتاب قرية ظالمة كل ما سبق ولحق
بهذا الكتاب • وتفسيرى له يقوم على أكثر من قاعدة وسبب •
وجماعها فى أن يبلغ ما بلغ فى تصويره ، وفى لغته ، وفى بيانه وبنائه
وأسلوبه • وفى فلسفته الفردية والاجتماعية ، وفى اتصاله
بأسمى قضايا البشرية عندما يتعلق الأمر بحياة أنبياء الهدى
ورسل الحب والسلام وفى أن يكون صورة تنبض حياة لصديقى
محمد كامل . حسين وخلاصة مصفاة لكل ما شهدته فيه وتوقعته
من عبقريته •

واذ أقدم للقراء كتاب الأخ نسيم مجلى فلأنى واثق من أن القارئ واجد فيه تحليلاً صادقاً أميناً لشخصية محمد كامل حسين كاتباً ومفكراً ، تبرز للقارئ بمجرد الاطلاع على رؤس موضوعاته •

وحدة التطور التاريخي — منهج جديد لوحدة المعرفة —
الوادي المقدس... وحديث الى النفس وتختتم هذه الفصول بأزمة الضمير الانساني ، حيال ما وقع من أحداث ، وجرى من أحداث في يوم جمعة حزينة بأورشليم ، القرية الظالمة •

فليطمئن القارئ وهو يتابع هذه الفصول انه يقرأ لكاتب نقاده ، شفاف النفس ، متفتح الفكر ، يجيد الغوص على ما في بحر العلم والفكر والفن من درر •

لقد كسبت بمطالعة هذا الكتاب صديقاً يحبب ذكرى صديقي الأعز بأسلوب جدير بمادته وموضوعه •

وليصدق القارئ وعدي له لأنه سوف يكسب مثلي صديقاً هو نسيم مجلى ، الذي عرض بأبرع الوسائل وأبلغها فكر محمد كامل حسين والاشعاع الذي ينبعث من أدبه وفنه •
القاهرة في ٢٦ يولية ١٩٧٨ •

د. حسين فوزي

مقدمة

حياته وأعماله :

يعد الدكتور محمد كامل حسين نموذجا فريدا في حياتنا الثقافية المعاصرة اذ جمع بين النبوغ العلمي والنبوغ الأدبي وحاز التقدير في الميدانين فحصل على جائزة الدولة التقديرية مرتين ، مرة في العلوم ومرة في الآداب . وبرحله في السابع من مارس ١٩٧٧ تفقد الحياة الثقافية في مصر والعالم العربي عالما وأديبا كبيرا تخطت شهرته حدود مصر والعالم العربي ، اذ ترجمت قصته « قرية ظلمة » الى الانجليزية والفرنسية وغيرها من اللغات الأوربية وأثارت اهتماما كبيرا بين بعض رجال الفكر الغربي المسيحي حتى أن بعضهم يعتبرها محاولة لاكتشاف أرض مشتركة للحوار بين المسيحيين والمسلمين .

وكامل حسين يذكرنا بمفكرى عصر التنوير في أوروبا الذين يجمعون بين الثقافة العلمية والثقافة الأدبية ، فهو أستاذ في علم جراحة العظام وصل في تخصصه الى أعلى الدرجات ومعلم تدرج في مجال التدريس بالجامعة حتى وصل الى منصب رئيس قسم جراحة العظام ومدير لجامعة عين شمس ١٩٥٠ .

ولم تمنعه دراسة الطب أو ممارسة مهنته كطبيب وأستاذ

جامعى من مواصلة الدراسة والبحث فى الأدب والتاريخ والفلسفة والدين ، وظل يساهم فى هذه المجالات بكتبه وأبحاثه .حتى
انتخب عضوا بمجمع اللغة العربية سنة ١٩٥٢ •

ومن أعماله :

١ - قرية ظالمه التى فازت بجائزة الدولة
سنة ١٩٥٧ •

٢ - التفسير البيولوجى للتاريخ •

٣ - وحدة المعرفة •

٤ - الشعر العربى والذوق المعاصر •

٥ - الوادى المقدس •

٦ - الذكر الحكيم •

بالإضافة الى عدد من الأبحاث الأدبية والعلمية التى ساهم
بها فى دورات المجمع اللغوى مثل الفصول الآتية وهى منشورة
فى كتاب متنوعات جزء أول وثانى :

* أدب النقائض وحقيقة أمر الفرزدق •

* القواعد العامة لوضع المصطلحات العلمية •

* اللغة والعلوم •

- * معنى الظلم في القرآن •
- * تاريخ الكيمياء القديمة •
- * الحرمان : أثره في الأفراد والجماعات •
- * القرآن •
- * التفسير العلمى للقرآن بدعة حمقاء •
- * الترجمة العربية لبردية أودين سميث •
- * قصة آدم •
- * محنتان متشابهتان •
- * أصول علوم اللغة •
- * أسلوب أبى العلاء المعرى ودلالته •
- بالإضافة الى بعض اقتراحاته الهامة بتيسير اللغة العربية وحل مشاكلها •

وهو كطبيب وأستاذ جامعى نجده مهتما فى كل ما يكتب ،
 بالعلاج ووضع الحلول • ويبدو أن انشغاله كطبيب بعلاج كسور
 الجسم وجروحه قد كشفت له عن بعض المناطق المظلمة فى
 النفس البشرية ، ورأى فى لحظات الآلام الرهيب مواطن الداء
 الحقيقية ، فاهتم بأزمة الانسان ككل وراح يبحث لها عن العلاج

في مجالات المعرفة المختلفة ، فدرس الفلسفة والتاريخ وحاول الوصول الى نظرية لتفسير التاريخ الانساني . واهتم بدراسة الأديان السماوية الثلاثة وبالأخلاق اليهودية والمسيحية . كذلك اهتم بالتفسيرات العلمية والأخلاقية للقرآن ، ومن أهم بحوثه في هذا الشأن « معنى الظلم في القرآن » . ولفظ الظلم ومشتقاته يتردد في القرآن أكثر من مائتين مرة . ولعله وجد في معنى الظلم وأثاره الاجتماعية مصدر الداء بالنسبة للأفراد والجماعات . وهذا ما يبدو واضحا في قصة « قرية ظالمة » وفي قصتيه القصيرتين « الاسخريوطي » و « الراهبة والعجوز » .

رسم له أصدقاءه ومعاصروه ، صورة قوية متعددة الجوانب . ولكنهم أجمعوا جميعا على تميز شخصيته وتفرد . وهذا ما سنجده في أقوال الدكتور ابراهيم يومي مذكور ، والدكتور حسين فوزي والأستاذ فتحى رضوان . وهم جميعا من كبار المفكرين والأدباء في مصر وفي العالم العربى كله .

عالم يؤمن بالعقل والتجربة العلمية :

في حفل استقبله عضوا بمجمع اللغة العربية وصفه الدكتور مذكور بأنه عالم يؤمن بالعقل والتجربة العلمية . وفي موضع آخر قال عنه : « وكامل حسين يريد العقل العلمى الذى يحلل

ويعطل لا العقل الاقطاعي كما يسميه أحيانا ، أو عقل القرون الوسطى الذي يسلم ويستسلم فلا ينقد ولا يناقش ولا يخترع ولا يبتكر . وهو في ربطه للعلم بالعقل يدرك في وضوح مدى الصلة بين الطب والفلسفة ، فهو في نفسه فيلسوف بقدر ما هو عالم » .

هذه اللمحة السريعة الذكية تلخص دون شك موطن الإصالة في فكر كامل حسين كما سنرى فيما بعد . ولعل تفرد كامل حسين في الناحية المنهجية يؤكدها الأستاذ محمود العالم بقوله :

« والدكتور كامل حسين في الحقيقة مفكر أكثر منه أديب ، يغلب الطابع الفكري الخلاق على كل ما يكتب ، لا تشذ عن هذا روايته (١) فله منهج محدد في التفكير يستلهمه من ثقافته العلمية ، وله مذهب واضح القسّمات يستوعب جانبا كبيرا من أشكال التعبير والنشاط الانساني ويعد كتابه الأخير « التحليل البيولوجي للتاريخ » تعبيرا متكاملا عنه .

وفي ثقافتنا العربية تيارات فكرية بعضها يبرز خلال المذاهب النقدية للأدب ، وبعضها الآخر يبرز في الدراسات التاريخية

(١) قرية طالة .

والاجتماعية والاقتصادية ، الا أنها جميعا لم تتكامل في مذاهب واضحة القسمات ، محددة القيم » .

والواقع أن كثيرين ممن نادوا بمذاهب أو مناهج في ثقافتنا المعاصرة كان معظمهم ان لم يكونوا جميعا مترجمين لفكر أجنبي يحملون مناهج منقولة أو منحولة . وهذا ما نجا منه كامل حسين بما حققه في بحوثه العديدة المختلفة والتي تبرز جدة منهجه ومذهبه .

ويرسم له الدكتور حسين فوزي صورة أدبية متعددة الجوانب والألوان (٢) :

« كان المع الشخصيات في المجمع ، فشخصيته الجذابة شبت ونمت على المعرفة . وبدافع عقله اليقظ ، تابع الدراسة من باب الى آخر ، من الشعر والأدب الى الفلسفة والعلم ، وحقق فيها كلها امتيازاً ملحوظاً ، وصفه شاعر من معارفه بأنه نموذج مثالي ، وهبته الطبيعة كل عطائها . . انكب على الدرس بلا معاناة ، صاحب ذاكرة عجيبة ، وثقافة بارحة الجنبات ، متمكن من لغته ، وهو علم فيها ، متضلّع في غيرها . دماثة الخلق في طبعه ، متفتح العقل لكل فلسفة ، وكل ديانة ، لا يرفض نظاماً عقلائياً ، وهو المتصوف بقلبه وكيانه ، دون قبول للغيبيات

(٢) في كلمة التأبين التي القاهها بمقر المجمع العلمي المصري في ١٢/٧/١٩٧٧ .

الشعبية • عطوف على الفلسفة الاسكولائية ، وذلك غير معتاد في أنداده ، متبحر في الفكر العربى ، ومتنظر على الفكر العبرانى، وكان يشهد لبعض أساتذته من اليهود أطيّب شهادة • لا أثر لتعصب في تفكيره ، ولا في علاقاته • طالع الأناجيل ، وكتب العهد القديم ، وتدارس الديانات المقارنة ، جمع في وحدة معارفه المسيحية والموسوية ، وضم اليها الأفلاطونية القديمة ، والجديدة، مع أرسطو • وعلى الرغم من الاحترام الذى يقابله ، والتبجيل الذى يلقاه ، فقد احتفظ بتواضعه ، الا فيما يمس دقة تفكيره ، وصحة علمه ، أو ايمانه بقدرة العقل » •

هذه الصورة التى رسمها الدكتور حسين فوزى واستعار بعض خطوطها مما قاله الشاعر لوتسيانو يصف به صديقه جوفانى بيكوديللا ميراندولا وكان الخلاصة المصفاة لعصر النهضة ١٤٦٢ - ١٤٩٣ م • لأنه يؤمن ان محمد كامل حسين هو رجل نهضة أو « هيومانى » •

والواقع ان هذه أبرز خاصية فى كامل حسين ينفرد بها فى تاريخ الفكر المصرى الحديث •

وسوف نقف عندها طويلا عند الحديث عن هذا الجانب • وقد أشار الأستاذ فتحى رضوان الى هذا المعنى حين قال : انه « بين الكتاب والمفكرين ، والأدباء رجل فريد ، ليس فيمن حمل القلم فى الخمسين سنة الماضية رجل يشبهه » •

هذه الشخصية الفذة التي بهرت هؤلاء المفكرين الكبار ،
لا بد ان تبهر أمثالي . وقد بهرت بها فعلا ، وأحببت في صاحبها
خصالا فكرية كثيرة ، فرحت أجمع كتبه وأقرأها وأفكر فيها
مليا . واكتشفت غزارة علم ، وعمق بصيرة ، وصدق التعبير ،
ووضوحه ، مما جعلنى أظن في بعض الأحيان انه قد وصل الى
حد اليقين الراسخ ، لكننى اكتشفت بعد حين أن هذا السطح
الساكن الهادئ يكشف عن أعماق ثائرة متلاطمة . وكان دليلي
في فهمه بضع مقالات قليلة لم تشمل كل أعماله . بل ان أهم
كتاب له وهو « وحدة المعرفة » لم يكتب عنه شيئا ذا بال سوى
مقالين في باب للهجوم أحدهما للأستاذ العقاد والثاني
للدكتور زكى نجيب محمود . وهما لم يناقشا الكتاب أصلا
وانما انصب كلامهما على وجه التشابه بين بعض ما قاله الدكتور
كامل حسين وما قاله الفيلسوف الانجليزى المعاصر صمويل
الكسندر . وقد أنكر الدكتور كامل حسين وجود هذا التشابه .
وقد كرست فصلا مستقلا لمناقشة هذه المعركة الفكرية .

ولهذا الأمر مزاياه وعيوبه . فهو يقدم للباحث فرصة طيبة
لتناول موضوع جديد غير مطروق . ومن عيوبه أنه يضع
الباحث أمام مسئولية كبيرة ومشقة أكيدة خصوصا اذا كان
الموضوع الذى يتصدى له يتعلق بقضايا فكرية بمثل هذه
الخطورة .

ولكى يسهل علينا تفهم مثل هذه الشخصية ، لابد لنا من
أن نبحث عن نشأة صاحبها وتتعرف على العوامل الاجتماعية
والثقافية التى ساهمت فى تكوينه العقلى والروحى •

حياته وعصره :

وهذا ما يحدثنا عنه الأستاذ فتحى رضوان فى مقال عنوانه
« وادى محمد كامل حسين المقدس » مجلة الثقافة عدد ٤٣
(أبريل سنة ١٩٧٧) •

ولد سنة ١٩٠١^(٣) ، فكأنه ولد مع القرن العشرين ونما
بنموه ، فلما بلغ أشده ، كان القرن يواجه مشكلاته التى لم
يواجهها قرن سواه ، اذ لم ينقض على مولده الا عقد واحد ،
أى عشر سنوات حتى كانت نذر الحرب العالمية الأولى تتوالى
ثم اكفهر الجو الدولى ، ثم وقعت المجزرة البشرية التى لم يسبق
لها مثيل ، فقد عرقت بها الشعوب ويلات الحروب ، فى البيت
والشارع والمصنع والمدرسة • فلما وضعت تلك المجزرة
أوزارها ، خلفت وراءها مشكلات بقى الانسان يعانى منها حتى
اليوم ، وهى على الأيام تتعقد وتتفاقم ، ولا يجد لها الناس حلا :
مشكلات الاسكان والأطعام وحرب الطبقات ، وتفشى أسباب

(٣) ولد فى العشرين من مارس ١٩٠١ بقرية سبك الضحك بمحافظة
المنوفية • وتوفى فى ٧ مارس ١٩٧٧ •

النقمة والسخط ، والاستسلام للشك والقلق ، والهزء بكل القيم ، واتحصار السلطة بصورها سلطة العائلة ، وسلطة الكنيسة ، أو الدين ، وسلطة الدولة ، وسلطة المدرسة . مما جعل الناس يمجون بعضهم في بعض ، ولا يجدون حرجا في التفكير في كل شيء ، ومراجعة كل قديم ، ومناقشة كل موروث والاجترأ على كل محترم ومقدس . والرغبة في اقتحام كل ميدان مغلق ، والتطلع الى كل غريب وبعيد وخصب .

وكان (محمد كامل حسين) ، وحدة انسانية فذة بظروفها ، فهو من عائلة علماء مسلمين يؤمنون بأكثر عقائد الانسان استقرارا واستمرارا وقدا وهو الدين ، ثم هو تلقى تعليمه في المدارس المدنية البحتة التي لا تعلم من الدين الا قشورا ، وفي ظل نظام أجنبي وافد ، قهر البلد ، وأخذ على عاتقه ، أن يخرج أهلها من كل ما ورثوه وعاشوا عليه قرونا ، وأن يحسن لهم طرازا من الحياة ، لم يألوه ، ويطمثوا اليه .

ولكنه كان من النخبة بين أهل وطنه ، اذ لحق بمعهد يعلم فرعاً من المعرفة يقوم من ألفه الى يائه على الدليل المادي ، المستمد من الواقع المحسوس ، والذي لا يدع مجالاً للتأثر أو التطوح ، مع ما وراء الظاهر الملموس ، ثم عانت حياته من مضاعفة أخرى ، تلك سفره الى ليثربول ليتلقى هذا العلم المادي في جامعة من جامعات الغرب ، ليعيش في مجتمع يختلف

عن مجتمع المصريين والعرب والمسلمين والشرقيين ، بل انه مجتمع
يضم لهؤلاء جميعا شعورا من الاحتقار ، لأنه قهرهم في
بيادين الحرب والسياسة معا ، ثم استعبدهم واسترقهم في
مجالات العلم والثقافة ثانيا ، ثم جرهم وراءه من حطامهم في
دروب الحكم والادارة •

ولكن محمد كامل حسين لم يكن قادرا على أن يندمج في
المجتمع الجديد ، وأن يسقط كل خصائص قومه ويطهر عقله
وتفسيه من تراث آباءه وأجداده ، فيصبح غريبا ، يؤمن بأساليب
الغرب في البحث العلمي والدراسات التطبيقية ، كما يؤمن
بمناهجه الروحية ، نظرتة الى الناس ، وما يساور قلوبهم ،
ويخالج نفوسهم • فقد كان أدبيا ، قارئاً وكان ما يقرأه من كتب
مؤلفي الغرب ومفكريهم وما يشاهده من حياة أهل أوروبا ،
لا يؤدي الى الطمأنينة والثقة ، بل يدعو الى الشك المعبذ ،
والقلق المضنى •

وعاد في العقد الثالث من القرن العشرين أستاذ لفرع من
الجراحة كان مستحدثا ، وهو جراحة العظام • وهذه الجدة
تمنح الأستاذ الذي يبدأ تطبيقه في بلاده ، شعورا بالتميز ، كما
يلقى عليه احساسا بمسئولية الرائد • وأستطيع أن أؤكد أن
هذا كله امتلأت به نفس الجراح الشاب ، وهو يثوب الى
بلده وقد اصطدم الشاب ذاته بالتقديم في مجال التعليم

الجامعى ، فور عودته الى وطنه • فقد كانت كسور العظام تعالج فى مصر تحت اشراف طبيب ينتمى الى الجيل القديم كان يضع فوق الكسور أثقالا من الجبس ، ينوء تحتها المريض ، وتحبسه عن الحركة فترة طويلة ، ولكن جراحة العظام تطورت خلال الحرب العالمية الأولى ، فقد كان استبقاء الجندي الجريح طويلا مما لا يتفق مع ظروف الحرب ، اذ أن المستشفيات كانت تميل الى اخلاء أسرتها ، وفى أقصر وقت لتستقبل أفواجا جديدة من الجرحى والمصابين ، وكانت الجيوش فى أشد الحاجة الى المقاتلين الجرحى الذين التأم جروحهم ، وجبرت كسورهم ، ليعودوا الى ميادين القتال ، وأدى ذلك الى تطوير جراحة العظام ، فأصبحت الفترة التى يقضيها المصاب بكسور العظام فى المستشفى أقصر بكثير مما كانت ، وقلت طبقات الجبس وزنا وأصبحت لا تعوق المريض من الحركة داخل حجرته فى المستشفى ، ثم بعد ذلك فى بيته أو محل عمله •

فلما رفض الطبيب القديم فى الجامعة هذا الأسلوب الجديد ، نقل الدكتور محمد كامل حسين نشاطه الى مستشفى الهلال الأحمر ، حيث أنشأ قسما لجراحة العظام ، وهناك أقام جامعة صغيرة ، كان هو واضع أسسها ، وعميدها ، وأستاذها ، وكانت تقاليدہ فيها ، روحية وخلقیة ، كما كانت علمیة وأکادیمیة • فمن تقالیدہا ، أن یجتمع هو ومعاونوه وتلاميذہ كل يوم لمناقشة الحالات التى وفدت الى المستشفى ، وإبداء

الرأى فيها ، وتتبع تطورها تقدما وتأخرا ، وكان يوزع على هذه الجماعة الصغيرة ما يرد الى مصر من المجلات الطبية والمراجع العلمية، ليقراً كل فرد منها ما خصص له ، ثم يقدم ملخصا لما قرأ فى اجتماعات الجماعة — وكان من هذه التقاليد ، أن الطبيب لا يعالج المريض بالدواء والعملية فقط ، بل بكسب ثقة المريض ، وتحويله الى صديق ، ومما يذكره تلاميذه له أن طفلا كان يشكو سلا فى عظام حوضه ، استقبلته المستشفى ، فكشف عليه أحد الأطباء الشبان ، فاجتمع حوله الأطباء كالعادة ، فسأل الأستاذ ، محمد كامل حسين هذا الطبيب عن حالة الطفل فقال له سل فى عظام الحوض ، فقال الأستاذ وكيف عرفت ؟ فثنى الطبيب ساق الطفل الى الخلف ، فأن الطفل وتأوه ، وصدرت عنه شكوى فى صورة (آه) فغضب الأستاذ وقال لتلميذه « ان أعظم خطأ يرتكبه الطبيب ، هو أنه يؤلم مريضه ويحمله على التأوه . ان لفظ (آه) هى عنوان فشل الطبيب . ثم أخذ يكلم الطفل ، وهو يتحسس عظامه ، برفق ، ولطف ، وقد انشغل الطفل بكلام الأستاذ ، حتى استطاع جميع الأطباء الشبان ان يشخصوا الحالة جيدا والطفل لا يشكو ولا يتألم .

وأخيرا وضع الطبيب الشاب ، العائد الى بلاده ، من بلاد الغرب لجامعته الصغيرة فى مستشفى الهلال الأحمر لجراحة العظام ، تقليدا خلاصته عندما يسمع جرس عربة الاسعاف عند

منعطف الطريق حاملة جريحا الى المستشفى ، يجب أن يكون
طبيب النوبة قد فرغ من ارتداء معطفه الأبيض وأسرع عدوا الى
حجرة العمليات ، ومعه معاونوه ، كيلا يضيع على الحساب أقل
قدر من الزمن •

وليس هذا اجراء طبيعيا بقدر كونه تنبيها روحيا لا للأطباء
المعاونين لمحمد كامل حسين وحدهم ، بل للأطباء المصريين كلهم،
ثم لمصر بأسرها من ورائهم فهذا التنبيه والاستعداد والسرعة
والأريحية والنجدة فضائل تعدى ، كما تعدى الرذائل •

لم يكن ممكنا لانسان هذه خصائصه العقلية وتجاربه
الوجدانية ، أن يمضى فى الحياة جراحا عظيما بين الأطباء الذين
يمارسون الجراحة ، ولا أستاذا كبيرا بين أساتذة الجامعة ،
ولا كاتبا متميزا بين الكتاب والأدباء ، ولا كل هؤلاء المجتمعين ،
انما لابد أن يكون صاحب دور فى مرحلة التجديد الروحى لبلاده،
وأصحاب هذا الدور ، لا يكونون عادة ممن يجذبون اليهم
أضواء الشهرة ، ولا تذيب مؤلفاتهم ، يتنبه القراء الى خصائصهم،
وأن تروج بين الناس كتبهم ، فالشهرة والذيع فى الأغلب
والأعم ، وقف على السطحين ذوى البريق من أهل القلم وسدنة
الفن • وان كان لكل قاعدة شواذ تدل عليها ، ولا تنقضها •

مصادر ثقافته :

والمُتبع لكتابات كامل حسين ، يلاحظ عمق معرفته بالأديان وبالكتب السماوية عموماً وعلى الأخص القرآن . كذلك تمكنه من اللغة العربية وامتلائه بها . ولاشك أن نمو هذه الثقافة وتعمقها على هذا النحو يرجع الى نشأته في « عائلة علماء مسلمين » كما أشار فتحى رضوان .

أما نموه العلمى وتعلقه بدراسة اللغات الحديثة ، فيرجع الفضل فيه الى المدارس المدنية . والدكتور حسين فوزى يذكر أنه تلقى دراسته في المرحلة الثانوية بالمدرسة الالهامية بالقاهرة (٤) ، وهى من أكمل المدارس الأهلية في زمانها . وإن هذه المدرسة قد هيات له فرصة التفوق والنبوغ لأن « ذكاءه النافذ ، وتفوقه الجلى ، دفعا بأساتذته الى تركيز جهدهم عليه في السنة النهائية ، ليرفع من شأن مدرسته فوق المدارس الأميرية . وقد جاء ترتيبه الأول على دفعته سنة ١٩١٧ وكافأته المدرسة بساعة جيب قيمة .

كما يذكر الدكتور حسين فوزى أيضاً انه ظل الأول طيلة سُنّى دراسته بمدرسة الطب ، ويؤكد على الدور الذى لعبته المدرسة في حياة كامل حسين بأن واحداً أو اثنين من مدرسيه

(٤) كانت تدرس كل المواد باللغة الانجليزية (ومكانها الآن بنيقادن) .

قد فتحا له « طاقة صغيرة يطل منها على المعارف الخارجة عن مقررات وزارة المعارف العمومية .. وعلماء التربية صادقون في اعطاء أكبر وزن لشخصية المعلم . فهو ليس الساقى للعلم بكأس مهراق ، وإنما هو الموقد في النفوس ذبالة تتحول ضوءاً كاشفاً » .

« لقد أشعل فيه مدرسه جذوة النبوغ والتفوق ، مما دفعه في مرحلة الدراسة العليا ، الى الاعتماد على نفسه لتوسيع آفاقه ومداركه ، بالاطلاع على شتى أبواب المعرفة ، وأذكر له في هذا الضدد التحاقه بمدرسة « برليتز » ونحن طلبة ، لندرس اللغة الفرنسية . وكان يسر الى في شيخوختنا قائلاً : اتى مدين لهذه اللغة بأسعد ما حققت وعرفت من تجارب الحياة . ولهذا تفسير فقد حاز درجاته العلمية في انجلترا بجهدته الدراسي . وحاز ما حاز في فرنسا بنبوغه ! » .

« وفي لقاء لنا بفرنسا ، من تلك الزيارات التي كنا تتبادلها عبر المائش ، ونحن نراجع أنفسنا وما حققه لنا الانقشاح الكامل على حضارة أوربا ، لا أنسى قول كامل حسين : أهم ما نصنعه بحياتنا في هذه الحضارة ، أن نسد الفجوات التي تركها لنا تعليمنا في المرحلتين الابتدائية والثانوية » .

موقفه من الحضارة الغربية :

ويتضح لنا من كلام الدكتور حسين فوزى انه كان معجبا بهذه الحضارة ، منفتحا عليها ، لا تصده عقد تقص ، أو مشاعر دينية متعصبة حتى رأى فيه أكمل صورة لرجل النهضة كما ينبغي أن يكون . ولعل هذا يختلف مع ما يقوله الأستاذ فتحى رضوان من انه لم يكن قادرا على أن يندمج فى المجتمع الجديد ، وان يسقط كل خصائص قومه ويظهر عقله ونفسه من تراث آبائه وأجداده ، فيصبح غريبا يؤمن بأساليب الغرب فى البحث العلمى ، والدراسات التطبيقية ، كما يؤمن بمناهجه الروحية ، نظرتة الى الناس وما يساور قلوبهم ويخالج نفوسهم .

ولا أعتقد ان الاندماج فى مجتمع الغرب كان يعنى ان يتحول كامل حسين الى رجل غربى كما يظن الأستاذ فتحى رضوان . لكن الشئ الأكيد انه اخذ بأساليب الغرب ومناهجه العلمية والفكرية دون أن « يسقط كل خصائص قومه ويظهر عقله ونفسه من تراث آبائه وأجداده » ولا أدل على ذلك من ايمانه بمناهج العلوم البيولوجية والطبيعية واعتناقه لنظرية التطور الطبيعى التى أكد صحتها فى كتاب « وحدة المعرفة » . أما تأثيره بمناهج الحضارة الغربية الروحية فواضح من تمسكه الشديد بحرية الفكر وبالديمقراطية ، وفى رفضه المطلق للنظم الشمولية المذهبية أو الدينية . بل ان نظرية « الوادى المقدس » تدور حول

حرية الضمير الفردى وحدود الولاء للجماعة ينتهى فيها الى
تقديس حرية الفكر كأساس لحرية الضمير الفردى ، كمطلب
ضرورى لصحة الجماعة وأن غياب الحرية من أمراض الحرمان
يعتبر غيابها فى مجتمع ما مرضا قاتلا وهذا الداء هو السبب فى
انهيار الدولة العثمانية .

وكذلك فان مسألة الاندماج فى المجتمعات الغربية الحديثة
مسألة نسبية ولا تتطلب أبداً سلخ الانسان من تراث آبائه
أو تجريده منه ، فقد اندمج طه حسين فى مجتمع فرنسا وأحب
باريس حبا عميقا ، وكذلك فعل قبله رفاة الطهطاوى وقاسم أمين،
ولم يكن تقبلهم لمناهج هذه الحضارة وتمثلهم لقيمها دليلا على
تخليهم عن سمات الأصالة الوطنية أو القومية .

كذلك لا أعتقد أن محمد كامل حسين كان يمكن أن يحقق
هذه الدرجة من النبوغ والتفوق فى تخصصه لولا اندماجه مع
هذا المجتمع واحترامه له . يذكر الدكتور حسين فوزى فى
معرض الحديث عن احترام كامل حسين للأديان والمقدسات أنهما
كانا فى زيارة احدى الكنائس الكاثوليكية فى البريتانى ، ولاحظ
أنه عند اقترابه من الهيكل قد أتى حركة فيها تبجيل وتقدير
لهذا المكان . ولما نظر اليه الدكتور حسين فوزى مستغربا
ما يفعله ، قال له « لا تنسى أنتى أعيش مع أسرة كاثوليكية فى لندن
لعدة سنوات . واعتدت احترام هذه المقدسات » .

هذه الحادثة البسيطة تفسر لنا جانباً هاماً من فكر كامل حسين . هذا الجانب يتضح في احترامه الكامل للمعتقدات الدينية وطقوس العبادة عند جميع الملل والمذاهب الدينية ، وحرصه الأكبر على علاقات المودة والصداقة مع الناس جميعاً من أى جنس وأى دين ولون . ويرى فيها جميعاً وسائل صالحة لتحقيق التطهر النفسى أو الهداية . ورغم أن منهجه فى « وحدة المعرفة » يشير الى ان الخلافات فى الأديان ترجع الى اختلاف فى تصور الناس ومواقفهم من الله . ورغم ان عقله يرى فى الأديان أشياء لا تتفق وهذا المنهج العلمى ، فهو يتخرج من الإشارة الى هذه النقاط تفصيلاً حتى لا يشكك ولا يمس مشاعر المؤمنين بها مع ثقة كاملة بأن مستقبل العلم سوف يهين للأجيال القادمة فرصة الفهم الكامل لقوانين المعرفة والكون فيسقط كل ما لا يتفق معها تلقائياً ويجد الجميع أساساً طبيعياً مؤكداً لقيام الألفة والتفاهم والأخوة الانسانية .

مقومات شخصيته :

ومن المهم أن نشير هنا الى أن مواهبه الشخصية الفذة من ذكاء متقد ، وذاكرة قوية ، وقدرة فائقة على فهم لغته واللغات الأجنبية ، بل وطباعه الهادئة الرقيقة كل ذلك قد هيا له فرصة اللقاء الخصب مع مجتمع الغرب . كما هيات له فيما بعد حين عاد الى وطنه أن يكون صديقاً لأستاذ الجيل لطفى السيد ،

ولطه حسين عميد الأدب العربي ولأستاذه الدكتور على باشا
ابراهيم وكثيرين من رجال الفكر والأدب . ولاشك أن طبعه
الهاديء ، وعقله الرزين كانا من أكبر مقومات شخصيته التي
لفتت اليه الانظار من أيام الشباب . فشددت اليه اهتمام المدرسين
الذين اختصوه بالرعاية وفتحوا له باب التزود من العلم .

وفي هذا الصدد يذكر الدكتور حسين فوزى انه لم يره
غاضبا في حياته الا مرة واحدة أثناء زماثلهم في مدرسة الطب
كان الطالب محمد كامل حسين يظهر أكبر من سنه ، ربما لشاربه
الصغير ، وقطعا لهدوء حركاته ، وقلة كلامه بصوته المنعم
الخفيض . لم أعرفه غاضبا الا في ليلة من ليالينا بصحن الجامع
الأزهر الشريف في ابان ثورة ١٩١٩ . وقد ذهبت جماعتنا لمقاومة
خطيب مدره ، يزعم اثاره الشغب ضد الوفد المصرى ، دفاعا عن
الحزب الوطنى . وحين ظهر خبيىء هذا الخطيب ، نهض كامل
من جلسة القرفصاء غاضبا ، يحرك خيزرانه ، قطعاً ليست له ،
ويعلن بصوت زاعق أن الخطيب لا يفقه شيئا مما يتخرص به .
وهاج الحشد الكبير ، وأزاحوا الخطيب من المنصة .

ويمضى الدكتور حسين فوزى يؤكد على هذه الناحية
« أكرر بأنتى لم أر كامل غاضبا الا في تلك المرة . فالرجل
مثال في الرزاة ، يحركه عقل قاحص ، وتسانده فلسفة في الحياة

تعى كل أمر يدور حوله وتضع كل رأى فى موضعه ، حسب ميزان ، وتبعا لمكانه فى دوران المنطق » .

وهذه الاشارة تدل على انه كان يملك من الشجاعة ما يكفى للدفاع عما يؤمن به ويرى انه الحق . وفى نفس الوقت يفسر لنا هدوءه ورزاقته سبب عزوفه عن الدخول فى المعارك الفكرية العلنية ، رغم ان ما جاء به من جديد فى العلم وفى المنهج كان كفيلا بأن يشعل العديد من هذه المعارك الا ان ميله الى الهدوء جعله يتخير من الأساليب ما يكفى لنقل ما يقول ودون أن يستفز أحدا من المحافظين والمتزمتين . بالإضافة الى أن ما قاله فى هذه الناحية وصعوبة فهمه لعمقه وتشعبه فى العلم والفكر والفلسفة ما كان يتيح لهواة الشغب الفكرى فرصة الامساك به . لكن هذا الموقف له جانبه السلبى ، فقد أدى الى شبه اهمال لمنهجه العلمى الجديد ولكثير من أفكاره الخصبة فى هذا المجال .

والتزام الصمت حول فكره وأدبه يعتبر تقصيرا ليس فى حق هذا الرجل العظيم فقط وانما فى حق أنفسنا ولعل من نتيجته هذا التدهور الفكرى والثقافى الذى نلمسه فى حياتنا . وما أتعس البلد الذى يكون نصيب كبار الرواد فيه هذا القدر من الاهمال .

وقد حرصت فى دراستى لأعماله أن أبرز نقاط الخلاف بينه وبين الفكر التقليدى أولا من باب الصدق مع ما يؤدى اليه

منهجه من نتائج ، وثانيا رغبة في أن يكون لجهدى المتواضع
هذا صدى يدفع الى زيادة اهتمام عامة المثقفين بأعماله .
ولا أعتقد أننى قلت كل ما كان يجب أن يقال فى هذه الناحية .

وليس فى مقدور باحث واحد ، مهما علا شأنه ، أن يقول
كل شئ أو يعطى الكلمة الأخيرة فى تقييمه لفكر وأدب وعبقريته
متعددة الجوانب من هذا الطراز . وأنا أعتبر بحشى هذا
دعوة لبدء النقاش الخصب حول أعماله وأفكاره حتى يصل
أثرها الى عامة المثقفين ، وحتى يثير مكان الفكر الخصب عند
شبابنا من المتخصصين فى مجالات العلوم ليتابعوا ما بدأه
كامل حسين لعله يخرج من بينهم فابغة يستكمل ما أشار اليه من
فجوات فى نظام المعرفة . وظهور مثل هؤلاء النوابغ هو الذى
يعطى قيمة حقيقية لتاريخ الفكر المصرى . وهو الذى يصل
حياة مصر الحديثة بماضيها العظيم ويؤكد دورها الحضارى
فى كل العصور .

اشتغاله بالكتابة :

يرجع اهتمامه بالكتابة الى فترة مبكرة من شبابه . وكان
من الطبيعى لانسان هذه مواهبه أن ينزع للتعبير عن آرائه
العلمية والأدبية . فابتدأ منذ تخرجه فى كلية الطب يكتب فى

« السياسة الأسبوعية » • باسم مستعار هو « ابن سينا » ويشير .
الدكتور ابراهيم ييومي مذكور ، رئيس المجمع اللغوي ، في
مقاله بمجلة (الهلال عدد مارس ١٩٧٣) الى ذلك قائلا :

« لم تقف مقالاته عند الطب والصحة العامة بل امتدت الى
(اللغة العربية) و « البحوث العلمية » ولو سمي نفسه (ابن
المقفع) أو (عبد الحميد) ما عز عليه ذلك » •

وقد ظل يرسل المجلة أثناء بعثته في انجلترا من

١٩٢٥ - ١٩٢٩ •

الاصلاح والتجديد :

ويواصل الدكتور مذكور قائلا « عرفته في مجالس
لطفى السيد •• وكان حديثه يدور غالبا حول الأدب واللغة
والاصلاح والتجديد » • وكلمتا الاصلاح والتجديد تعطيان
مفتاحا لفهم شخصيته • فقد تمثلت معانيهما في كل عمل قام به
وكل كتاب ألفه » •

يتضح ذلك فيما يقوله صديقه الأستاذ فتحى رضوان عن
تجديده في أساليب علاج كسور العظام واقامته مركز طب العظام
بمستشفى الهلال ، واشارته الى دوره في التجديد الروحي بارساء
« تقليد خلاصته عندما يسمع جرس عربة الاسعاف عند منعطف
الطريق حاملة جريحا الى المستشفى يجب أن يكون طبيب النوبة

قد فرغ من ارتداء معطفه الأبيض وأسرع عدوا الى حجرة العمليات ومعه معاونوه - لكيلا يضيع على المصاب أقل قدر من الزمن « . وهذا ما أكدته الدكتور عبده سلام الذي قال انه تتلمذ على يديه وتعلم منه معنى المسؤولية وحسن العناية بالمريض .

وقد كللت جهوده في هذا السبيل بإنشاء أول قسم لطب العظام بجامعة عين شمس وقد قدرت له الدولة هذا الصنيع العظيم ومنحته جائزة الدولة التقديرية للعلوم ١٩٦٥ .

بل ان هذه الصفات هي التي كانت موضع اهتمامه فيمن كتب عنهم .

... كتب عن لطفى السيد يقول أنه أرسطى من الطراز الأول ، ويعتبر تشابهه مع أرسطو سببا في نجاح دعوته الفكرية . « لم يكن عفوا أن يكون الداعية الأكبر الى أرسطو في مصر الحديثة هو أحمد لطفى السيد ، بل لم يكن بدا من أن يكون الأمر كذلك » . « لأن نجاح الدعوة في رأيه لا بد له من شروط » انما تعد الدعوة ناجحة حين يكون القائم بها أقرب ما يكون طبيعة وتفكيراً الى من يدعو اليه » .

أما في مقاله عن الدكتور على ابراهيم فنجده يقول « انه

كان بناء ، فقد شيد كثيرا ، وكأننا عاهد على أن لا يترك شيئا مما تفخر به البلاد الحديثة الا أنشأ له شبيها في مصر » •

وفي وصفه لهذين الرائدین ، يؤكد امتلاكه لموهبة الكتابة الأدبية ، وعلى الأخص للقدرة على رسم الشخصيات وإبراز الصفات المؤثرة في سلوكها • وقد تجلت هذه القدرة في بناءه لشخصيات قصصه وبالذات في « قرية ظالمة » • حيث نلاحظ براعة المؤلف في استحضار الشخصيات التاريخية بسماتها النفسية والفكرية المعروفة في الكتب الدينية والتاريخية •

بل أن كتابته لهذه الرواية يدل دلالة قاطعة على صدق البصيرة وأصالة التجديد بالإضافة الى نبل المقصد والغاية • فقد رأى الكتاب الغربيون الذين ترجموا هذه القصة الى الفرنسية والإنجليزية أنه أول مسلم يتصدى لبحث حادث الصلب ويبين مغزاه الانساني في نطاق حدود ما رسمه القرآن • وكانت اضافته عظيمة في توضيح الآية القرآنية على نحو صحيح وجديد •

وكذلك الأمر بالنسبة لدراسته للغة العريية واقتراحه لتيسير كتابة اسم العدد بإبقائه دائما على حاله مع الفصل بينه وبين المعدود بحرف « من » فيقال دون تفرقة خمسة من الرجال وخمسة من السيدات • وذلك لأنه يريد لهذه اللغة أن تكون أداة علم وتحضر تيسر للأجيال الفهم والتفكير والتعبير • وإن الصراع

بين العامية والفصحى يجعل عملية التيسير ضرورية وعاجلة حتى
تواكب التطور الحديث في الفكر والأدب فهو يقول عن « دعاء
الكروان » (١٩٤٢) •

« آمل أن أرى يوما هذه اللغة الشعرية تتمدد دون ابتذال ،
ودون أن تفقد من رونقها شيئا الى أن تصبح أداة فعالة لمجرد
رواية حادثة وشرح موقف » • أى أن تصبح لغة دقيقة قادرة
على تصوير المواقف الروائية دون ابتذال أو مبالغة زائدة •

لهذا دعا الى إعادة كتب النحو وتبسيطه وتعديل مناهجه
حتى تتماشى مع روح العصر ، كما دعا الى وضع معجم حديث
« مصفى في اختيار الالفاظ ، وحديث في تحديد معانيه ، لا يذكر
فيه اختلاف اللهجات ، ولا استعمال الأضداد لللفظ الواحد •
ولا يقبل فيه الا صيغة واحدة للكلمة ، والا مصدر واحد للفعل ،
والا جمع واحد للاسم وتشرح الالفاظ شرحا دقيقا واضحا
واضحا يتماشى مع ما انتهى اليه العلم الحديث » • (من مقال
الدكتور مذكور) •

لكن حماسه للغة العربية لم يبعد به عن موقف الصديق
أبدا • وهذا ما يؤكد في بحثه عن « اللغة والعلوم » حيث يفرق
بين لغة التفاهم والأدب والفكر وبين لغة العلوم الخاصة
بالمصطلحات العلمية • وهو يجد أن الفاظ اللغة اللاتينية هي

الأصلح للمصطلحات العلمية باعتبارها لغة ميتة لن تتطور ولن يدركها التغير وهذا يؤدي الى استقرار المعاني وسهولة المعرفة . ولهذا لا يرى مسوغا لترجمة الالفاظ أو المصطلحات العلمية من اللاتينية أو الاغريقية الى العربية .

محمد كامل حسين المفكر والأديب :

من الملاحظ في أعماله ان صفة المفكر تسبق صفة الأديب عنده ، بل وتطغى عليها . فانشغاله بالمنهج وبالمضمون الفكرى فى كل ما يكتب يشكل سمة بارزة فى كتاباته حتى الأدبية الخالصة منها ، كقصة « قرية ظالمة » مثلا .

وهذا الجانب لمسه كل من تحدثوا عن كامل حسين ، وفى مقدمتهم الدكتور، مذكور ، حيث يصفه بنعمة الفكر المستقيم ويقول عنه (مجلة الهلال مرس سنة ١٩٧٣) :

« وكامل حسين أديب موضوعى يعنى بالحقائق والمعانى ، يجمعها ويتخير أوثقها يهذبها وينسقها بحيث تبدو جليلة واضحة . وقد مكّنه اطلاعه الواسع من أن يعرض منها ألوانا شتى : فى الأدب والتاريخ ، وفى العلم والفلسفة . وهو ممن يؤمنون بوحدة المعرفة وارتباط جوانبها بعضها ببعض . فى علم النفس ما يوضح بعض المشاكل الأدبية ، والتاريخ وثيق الصلة بعلم الاجتماع

والسياسة ، وكثيرا ما تقود الدراسات الطبيعية الى ضرب من الميتافيزيقا » •

وهذا الطابع الفكرى الخلاق الذى يغلب على كل ما يكتبه كامل حسين ، يهيب بنا أن ندرس خصائصه ومعالمه قبل أن نبحث تطبيقاته فى أعماله • ولعله يجدر بنا أن نبحث فى بعض دراساته الأولى لنرى أهمية اهتمامه بهذا المنهج • وأول ما يلفت النظر فى هذا الصدد دراسته للطب المصرى القديم والطب اليونانى فى تعليقه على أقدم رسالة علمية فى التاريخ والمعروفة بـ «بيردية أدوين اسميث فى الجراحة وقد ترجمها الدكتور كامل حسين عن برستيد الى العربية » •

هنا نلاحظ فهمه لما يريد • فهو يرى أن العيب الأكبر فى الطب اليونانى يقوم على الاستنتاج بينما الطب المصرى القديم يقوم على المشاهدة •• يقول (متنوعات - ١ صفحة ٨٩) :

« والذى أؤكد ان هذه الطريقة هى خير الطرق لدراسة الطب فالعناية بالمريض والفحص الدقيق المتتابع والمشاهدة الدقيقة والمقارنة بين الحالات المتشابهة وقوة الذاكرة والتفكير السليم هى صفات العلم الحق وهى بالضبط الطريقة العلمية الحديثة وهى تختلف اختلافا تاما عن الطب اليونانى » الذى يقوم كله على الاستنتاج » •

هذه هي معالم الطريقة العلمية عند كامل حسين يضاف لها ملمح التجريب فيما بعد • فهو يشير الى توقف علم الكيمياء القديم في مقال (علما ن ضالان) ويؤكد أن أسباب ضلال هذا العلم هو ان الكيميائيين القدماء استعملوا « طريقة الاستنتاج والمنطق في فهم طبائع الأشياء وسنن الكون ، وهي لا تصلح لهذا النوع من البحث ، انما يصلح لذلك طريقة العلم التجريبي ولم تكن قد استكشفت حينذاك » وفحصه للعلوم القديمة على هذا النحو يؤصل في عقله وفكره قيمة المنهج بحيث يصبح ضرورة للوصول الى نتائج سليمة ، وضرورة لتطور المعرفة الانسانية • بل انه يهتم باستخدام الطريقة الصحيحة في المجال الملائم لها • وكلامه هذا يبرز المغزى الذي يشير اليه حين يقول انه يريد « العقل العلمي الذي يحلل ويعمل لا العقل الاقطاعي أو عقل القرون الوسطى الذي يسلم ويستسلم » •

وادراك كامل حسين لأزمة العقل الاقطاعي في العصور الوسطى هي التي حمته من الوقوع في شباك الثنائية الفكرية أو الازدواجية التي صبغت الفكر العربي منذ تلك العصور •

فقد اصطبغ الفكر الأوربي في تلك العصور بصبغة التوفيق أو التلفيق بين الفكر الفلسفي الاغريقي والفكر الديني ، فحاول الأوربيون التوفيق بين مثالية أفلاطون والمثالية المسيحية

وكذلك حاولوا التوفيق بين فلسفة أرسطو وبين الدين المسيحي • وهى محاولة لا تخلو دائما من قسر وتأويل حتى يتحقق الاتفاق بين السماء والأرض أو بين الأرض والسماء • وأدى ذلك الى وقوف العلم وتخلفه قرونا حتى جاء عصر النهضة وبرزت المفاهيم الانسانية الجديدة • وظهرت نظريات كوبرنيكوس وجاليليو وبدأ عصر الكشف الجغرافية ، فاذا الفكر القديم يتهاوى أمام ضربات النهضة الجديدة التى تدعو بحسم الى فصل السلطة الزمنية عن السلطة الدينية وتحرير العقل من سلطة الكنيسة ورجالها •

هذه الصفات التى كبلت الفكر الأوربى فى العصور الوسطى انتقلت الى فكرنا العربى منذ ذلك الحين ومازالت تعمل فيه عملها • ورغم ظهور حركات فكرية أو حركات تنويرية فى الوطن العربى وفى مصر الا أن هذه الحركات باءت جميعا بالفشل لأنها قامت على أساس هذا الازدواج وهذا التلفيق • حتى رواد النهضة عندنا من رعاة الطهطاوى الى طه حسين وقعوا فى هذا الخطأ القاتل • بل ان مفكرا ممتازا مثل الشيخ على عبد الرازق حسين نادى فى كتابه « الاسلام وأصول الحكم » بفصل الدين عن السلطة السياسية برر ذلك على أساس دينى لا على أساس انسانى • وهذا يوصلنى لما أريد أن أقوله بشأن محمد كامل حسين الآن •

لقد انفرد وحده في تاريخ الفكر العربي الحديث كله بإقامة فلسفته ومنهجه على أساس تطور العلوم البيولوجية والطبيعية . وحتى نظريته في التطهر التي شرحها في الوادي المقدس تشير الى دين انساني يبدأ بالانسان وينتهي اليه في علاقته بالله .

ورغم ايمانه الأكيد بالله ألا أنه لم يحاول في كتبه التوفيق أو التوفيق بين الفكر العلمي والفكر الديني . فهو يقول أن المنهج العلمي يبدأ بأوائل الأمور أما الفكر الديني فيبدأ بأواخرها . ولكن ذلك لا يمنع أن يلتقي العلم والدين عند نتيجة واحدة مثل اثباته للقدرة الالهية على أساس منهجه في المعرفة . لكن الفرق بينه وبين الآخرين أنه لم يطوع منهجه أو يلوى رقبته لاثبات هذه الحقيقة . وانما جاءت هذه الحقيقة نتيجة لتدرج القوانين الكونية بأن هناك قوة أعلى من الانسان وهذه القوة تتحكم في تاريخ حياته وهي طبعاً التي تجعل الموت قدراً محتوماً على الانسان ، وهي التي يصفها رجال الدين بالقوة الالهية أو الله .

ولو كان من طبعه التوفيق أو التوفيق لفعل فيما توصل اليه من نتائج تتصادم مع المفاهيم الدينية السائدة . الا انه تمسك بالصدق مع المنهج ومع النفس ، فلم يسخر أحدهما لخدمة الآخر . بل ان هذه الثنائية الفكرية كانت من ضمن الفلسفات

التي عمل على هدمها في « وحدة المعرفة » ووصفها بالعقم والتشويش .

ولعل هذا ما يجعلنا ، نحس انه يهتدى بمنهج راسخ لا يشط به هنا ولا هناك . والتزامه الصادق بهذا المنهج يؤدي الى تطوره الفكري تطورا يتفق وما يحققه هذا المنهج من حقائق . وفي ضوء هذا المنهج نجد انه يبدأ كتاباته الدينية بدفاع عن « القرآن » ثم ينتهي في كتاب « الذكر الحكيم » وهو آخر ما كتب تقريبا سنة ١٩٧١ ، الى تقديم دراسة قيمة تتصف بالوعى والمنطق والحكمة .

وهذه الدراسة تتوخى روح العصر فهو يقول في مقدمة الكتاب : « ولكل عصر موضوعات تعنى مفكره وقد لا تعنى من يأتون بعدهم » فالمسلمون كما يقول في « أشد الحاجة الى من يفسر لهم القرآن تفسيرا دينيا خلقيا خالصا » ثم يقول بعد ذلك :

« هذا هو غرضي الأول من هذه الدراسات : أن أقدم للمسلمين ممن نشأوا على التفكير الحديث ما يقرب القرآن من افهامهم . والغرض الثاني هو أن أقدم للمسلمين من غير العرب ، ولغير المسلمين ، شرحا يفهمون به القرآن من حيث هو كتاب منزل غرضه الهداية والوعظ . ومن حيث هو أصل العقيدة الاسلامية وأكمل تعبير عن خصائص النفس المسلمة » .

فهو يختار موضوعات بعينها تتمشى ومشاكل الانسان المعاصر ، ويفسرها على أساس التأويل والتأمل والتدبر بطريقة تدخل الى عقول وقلوب الملايين الذين يجهلون القرآن اليوم • وهو يشير الى التفاسير القائمة ويقول :

« ومن العبث أن نرغمهم على ما لا يجدون له صدى في نفوسهم ، ولو قدمنا اليهم دراسات قرآنية تعينهم على تفهم مشاكل نفوسهم التي لها مساس بحياتهم لكاف استجابتهم اليها أقرب وهدايتهم بها أكثر قوة وثقة » •

وهذا لا يتعارض مع نظريته في « الزاوي المقدس » ولا يناقضها • فهو يرى تبعا لهذه النظرية ان الدين أكمل وأشمل صور الايمان ، وان هذا الايمان لازم لصحة النفس • وان الاستهداء بالله هو خير طريق للهداية •

بل أن مقاله « القرآن » الذي كتبه بالفرنسية ١٩٣٣ ثم نشره في كتاب « متنوعات » وأعاد نشره في كتاب (الذكر الحكيم) بعنوان « اعجاز القرآن » وهو دفاع عاطفي قوي عن القرآن • هذا المقال مع ذلك ينطبق مع نظريته ومنهجه • وقبل أن تناقش هذه النقطة لابد أن نعرف ماذا يقول المقال :

ان هذا البحث كتب سنة ١٩٣٣ بالفرنسية لما أبداه أستاذ

الفلسفة في الجامعة المصرية وكان فرنسيا - من رغبته في تفهم
الأثر الذي للقرآن عند المسلمين فهو لم يتبينه عند قراءته
مترجما • لهذا قصر كامل حسين بحثه على الناحية الأدبية
الموضوعية التي يستطيع أن يسلم بها غير المسلم •

ولاشك انه أوضح هذه النقطة بجلاء وبين ان « للقرآن
روعة أدبية ليست لكتاب غيره ، والمسلمون حين يستمعون الى
آياته تأخذهم نشوة روحية خالصة ولا يبلغونها الا به » •

ان الأثر الأدبي والروعة البلاغية للقرآن كانت سببا في
تعلق العرب به وإيمانهم « فلم يكن الايمان سببا في الإعجاب
بالقرآن وانما كان الإعجاب به سببا في ايمان من آمن وحيرة
من كفر » • وحين يقول (صفحة ٥) « وعندي ان سر العبقريّة
الإسلامية يتمثل في معنى التقوى وهي المطابقة بين مبادئ
الأخلاق والحياة الدنيوية » • انما يذكرنا بفكرته عن الضمير
الإنساني ، في جملته الأخيرة • أما عن الإعجاب بالقرآن وأثره في
تحقيق الايمان انما ينطبق مع نظريته في التطهر من انه حالة نشوة
نفسية أو حالة رضا نفسي « تسمو فيها فوق طبيعتك وطبيعة
الأشياء ، فوق ضرورات الحياة ، بل فوق العقل » •

أما الذي أعنيه بالدفاع العاطفي انه لم يتعرض للنواحي
الفكرية خصوصا في رده على الغربيين • اذ يقول (صفحة ٨)

« عاب الغريون على القرآن ما فيه من نقص في التنظيم المنطقي ومن نقص في الذكاء وان الحجج التي يسوقها حجج عادية يعرفها كل انسان » • فرد عليهم قائلًا :

« ان الكتب المنزلة كلها لم تكن بالذكاء ولم تخاطب العقول وانما خاطبت الضمير الانساني ودعته الى الخير قبل أن يستطيع ذكاؤنا أن يميز الخبيث من الطيب فمن السخف أن نلتمس فيها المنطق والذكاء فما أكثر كتب المنطق والجدل الذكي التي لم يكن لها في الناس أثر ما » •

ولاشك في قوة هذه الاجابة وحكمتها رغم أنني وصفتها بالعاطفية وذلك لأن الدين يتعلق بالعاطفة والضمير ولو أدخلنا فيه المنطق والذكاء فتكون مثل علماء الكيمياء القديمة الذين طبقوا منهج الاستنتاج حيث يصح منهج التحليل والتجربة • وهذا ما أسميه بالتزام الصدق مع النفس والصدق مع الآخرين • هو استخدام كل طريقة في موضعها الصحيح •

ولو حاول أن يرد على هذه الملاحظات بالعقل وبالمنطق لدفعه هذا الى العسف في التأويل والتفسير مثل ما يفعل الكثيرون بدعوى تحويل الدين الى مياسة أو اثبات ان القرآن يتمشى مع العلم الحديث وهو الأمر الذي يهاجمه كامل حسين ويسميه بدعة حمقاء ويرى انه لا يدعو للاطمئنان لأنه يقرن الثابت في

القرآن بالمتغير مع العلوم وقد ينتهى هذا الأمر بإثارة الشك
أكثر من تثبيته للإيمان •

فهو حريص على أبعاد الدين والكتب المقدسة عن مجالات
الطعن والشك عموماً سواء كانت فى السياسة أو فى العلم لىبقى
لهذه الكتب دورها الأثير فى تهذيب ضمير الفرد وتقويته ،
وتثيت الايمان •

ومن أجل هذا يرى فصل الدين عن النظم الاجتماعية
لأن الدين ثابت والنظم متغيرة • ولأن هذا الارتباط قد أدى
الى محنة كبيرة عند المسيحيين وعند المسلمين •

وفى مقال « محتان متشابهتان » يقرر أن الصراعات الدينية
التي قامت حول التجسد عند المسيحيين ، والتي ثارت حول خلق
القرآن عند المسلمين كانت متشابهة فى تطورها وفى أسبابها
وتأثيرها • وينتهى من تحليله للجاذبتين الى النتائج الآتية :

« فمن الناحية الفكرية نرى أن عقيدة المؤمنين الأولين من
المسلمين والمسيحيين كانت تتمثل فى الايمان الطاهر النقى
البسيط الذى لا يشوبه التفكير الدقيق فى مظاهر هذا الايمان ،
ثم لم يلبث الناس أن يحشوا فى هذا الايمان وحكموا المنطق
والعقل وتفلسفوا » • وحتى لا يؤدى بهم هذا الحال الى الكفر ،

التمسوا الهداية عن طريق التأويل • وهنا نشأت الطوائف الدينية •

وكان هذا بداية الاختلاف الفكرى • لكن الأمر لم يستمر فى حدود الفكر • فقد حاول بعض رجال الدين الاستعانة بالحكام ، فى بعض الأحيان ، واستغل الحكام بعض هذه الطوائف لخدمة أغراضهم • ومن هنا تحول الأمر الى صراعات دمرية لا علاقة لها بالدين ولا بصحة الاعتقاد •

هذا التحليل الدقيق النزىه لمحتى المسيحيين والمسلمين يؤكد نتيجة واحدة ان ربط الدين بالسياسة فيه ظلم للدين وظلم للسياسة وظلم للناس فى كلتا الحالتين • كما أن المؤلف أشار الى نتائج هذا الارتباط السيئ سواء فى محاكم التفتيش أو فى ظل الخلافة الاسلامية فهو يعتبر هذا انحراف عن الصراط المستقيم • يقول (فى صفحة ٨٨ الوادى المقدس) :

« وقد تهتدى النفوس وهى ضعيفة ومقدساتها باطلة كما هى الحال عند البدائيين وقد تبطل نفوس قوية ومقدساتها حق كما حدث فى محاكم التفتيش • وليس للهدى والضلال معيار الا المعيار النفسى البحت » •

كذلك يشير الى غياب حرية الفكر فى ظل الخلافة العثمانية

ويعتبر أن ذلك الداء هو الذى قضى على هذه الدولة وسيقضى على أى نظام تنعدم فى ظلّه حرية الفكر .

لقد سألت نفسى وسألت غيرى عن موقفه السياسى ، وأخبرنى الدكتور حسين فوزى انه لم ينضم الى الأحزاب القديمة ولم يكن له موقف ظاهر فى هذا المجال . لكننى مؤمن أشد الايمان أن أى كاتب له منهج فكرى لا بد أن يكون سياسياً بالضرورة . وقد اكتشفت صدق ذلك بعد أن فرغت من دراسة كتابيه « التحليل البيولوجى للتاريخ » و « الوادى المقدس » اذ تأكد لى أنه ليرالى النزعة يميل الى الديمقراطية السياسية والى الاشتراكية الاقتصادية وهذا واضح فى تحليله للديمقراطية والشيوعية :

فهو يعتبر اقرار الديمقراطية للطبقة الاجتماعية رجعية فكرية بينما يعتبر الديكتاتورية السياسية عند الشيوعيين نظاماً رجعياً . وأنه يرى المساواة السياسية فى الديمقراطية عملاً تقديمياً والمساواة الاقتصادية فى الشيوعية أيضاً عملاً تقديمياً لذلك يكون تحقيق الديمقراطية السياسية والمساواة الاقتصادية فى أى نظام اجتماعى عملاً تقديمياً يتفق مع منهجه فى التاريخ ونظريته لمستقبل البشرية ، اذ يتنبأ كامل حسين بسقوط كل امتيازات

التفوق بين الأفراد ، نتيجة التقدم العلمى الهائل فى مجال انتاج
الأعضاء التعويضية والوسائل البصرية والسمعية والأوتوماتيكية.

وقيام مثل هذا النظام لن يتحقق الا بالحرية السياسية أولا
وزيادة قوة الأفراد حتى تحول قوة الفرد دون طغيان الجماعة
وحتى تحد هذه القوة من شرور الجماعة • وهذه النقطة هى
محور قصة « قرية ظالمة » وقصصه الأخرى القصيرة •

وحدة التطور التاريخي

ولعل أهم الأفكار المسيطرة على فلسفة الدكتور محمد كامل حسين هي فكرة التطور البيولوجي أو التطور الطبيعي كما سماها في كتاب « وحدة المعرفة » وهي ذات الفكرة التي يقيم عليها إيمانه بوحدة التطور التاريخي . وقد يكون من المفيد لنا ونحن بصدد مناقشة كتاب « التحليل البيولوجي للتاريخ » أن نرجع إلى كتابه « متنوعات - جزء أول » لنرى محاولته الأولى لتفسير بعض الأحداث التاريخية في ضوء هذه النظرية .

ففي مقال « محتان متشابهتان » يتناول المؤلف محنة خلق القرآن عند المسلمين ومحنة التجسد عند المسيحيين كحادثتين تثبتان وحدة التطور التاريخي .

وفي تحليله للأحداث المؤلمة التي قامت حول الخلافات المذهبية عند الفريقين يرى أن من أسبابها الأساسية رغبة رجال الدين في السيطرة والنفوذ مما دفع بعضهم للاستعانة بالحكام مما أدخل العوامل السياسية وجعلها المحرك الرئيسي للصدامات الدامية بين المسيحيين بعضهم بعضا حول فكرة تجسد المسيح . . وبين المسلمين بعضهم بعضا حول فكرة خلق القرآن ، أي أن العوامل المحركة للصراع كانت عوامل الاختلاف الفكري متمثلة في ظهور الطوائف الدينية ثم الرغبة في استغلال هذا الخلاف الفكري لتحقيق مصالح سياسية وشخصية .

وربما كان منهجه هنا يتشابه كثيرا مع ما أخذ به شبنجلر في كتابه « اضمحلال الغرب الذي أثبت فيه وحدة التطور التاريخي » والدكتور كامل حسين يعلن اعجابه بهذه الفكرة في السطور الأولى من مقال « محتان متشابهتان » بل يؤكد ثقته في منهج شبنجلر قائلا « ولا يستطيع الانسان ان يتجاهل نظريات مفكر يرى قبل الحرب العالمية الأولى ان الدين الجديد الذي يقوم في العصور الحديثة يقوم في روسيا ، ويتحقق ذلك بعد بضع سنين عند قيام الشيوعية ، ويرى أن عظمة باريس ولندن ستزول وتحل محلها موسكو ونيويورك » .

وعند اعادة نشر المقال في كتاب « الذكر الحكيم » نجد أن المؤلف يضيف تعليقا على نظرية شبنجلر حيث يقول « ومع ان هذه النظرية بنيت على استقراء تاريخي بحث الا ان لها سندا من قوانين التطور البيولوجي » .

وهذه الفكرة الأخيرة هي التي استولت على فكر كامل حسين في تحليله للتاريخ الانساني كله . وجعلته يتجاهل منهج شبنجلر رغم اعترافه بصحة نتائجه . بل أنه يرفض كل المناهج الأخرى التي ترى ان العوامل الروحية والاقتصادية والاجتماعية هي القوى المحركة للأحداث التاريخية . وعلى هذا يرفض جدلية هيغل المثالية ، والمادية التاريخية لكارل ماركس وكذلك

منهج « التحدى والاستجابة » لتوينبى ، وذلك بحجة ان هذه المذاهب كلها تقوم على الايمان بوجود قوى لها الأثر الأكبر في تحديد مسار التاريخ وكلها تؤدي الى نوع من الجبرية •

والواقع أن كامل حسين باعتماده على عامل « مطلق الزمن » وحده في تفسير الظواهر التاريخية ، يكون قد فرض على التاريخ الانسانى نوعا آخر من الجبرية ، مما أدى به الى بعض النتائج الخاطئة ، على عكس ما حدث بالنسبة لوحدة المعرفة اذ أدى منهج التحليل البيولوجى الى نتائج رائعة حقا •

لكن هذا كله لا يقلل من قيمة كتاب « التحليل البيولوجى » للتاريخ فهو محاولة فكرية جادة وجديدة لوضع تخطيط لفلسفة شاملة للتاريخ الانسانى فى ضوء منهج التطور البيولوجى • وكى تبين لنا القيمة الحقيقية لهذا الجهد القيم ، لابد من تحليله أولا بما يليق به من دقة وشمول •

فالكاتب يؤمن بإمكانية الدراسة العلمية للتاريخ والكشف عن القوانين التى تحكم حركته فهو يقول « والحقائق وحدها •• لا تصبح علما حتى تكشف عن القوانين التى تنظم علاقة هذه الحقائق بعضها ببعض » • ووسيلته الى ذلك هو المنهج العلمى الذى يعتمد على « المشاهدة الدقيقة والمقارنة الصادقة والاستنتاج الحق » والتاريخ فى رأيه هو ميدان هذه المشاهدات • ولا يعنى هذا أن تكون القوانين التاريخية فى طبيعتها مطابقة

لقوانين العلوم الطبيعية حيث النتائج حتمية والاستثناء غير مقبول • « فليس على التاريخ أن يصدق في تفصيلاته • وهو صادق من غير شك في عمومياته وقضاياه الكبرى هي أصدق ما فيه • وعليها وحدها المعول في اثبات القوانين التاريخية » • لكن ما هو التاريخ ؟

والتاريخ هو أثر الزمن في كائن حي بعينه هو الانسان • هذا التحديد يجعل الزمن محور بحوثه كلها • فليس من شأن التاريخ أن يبحث في طبيعة الانسان وغرائزه وفنونه واجتماعياته مجردة عن الزمن • هذا شأن الفلسفة والعلوم • أما التاريخ فانه يبحث في هذا كله في نطاق تتابع هذه الأمور تتابعا زمنيا •

مطلق الزمن :

وحين يبدأ المؤلف في تحقيق هذه الغاية ، نجد أنه يرجع التطور التاريخي كله تقريبا الى عامل واحد هو مطلق الزمن • وهو يؤكد أن « البحث في القوانين التي تحدد نظام الأحداث التاريخية يدعو حتما الى البحث في الزمن من حيث أثره في الكائنات الحية عامة والانسان خاصة ويدعو الى البحث في الانسان من حيث تأثيره بالزمن •• ذلك ان مطلق الزمن عامل قوى في تشكيل الأحداث التاريخية وتحديد أسلوبها ونظامها » •

وفي معرض النقد نجد ان عامل « مطلق الزمن » قد استوقف ناقدًا كبيرًا هو الأستاذ محمود العالم في مقاله « دفاع

عن التاريخ » (الرسالة الجديدة ١٩٥٧) الذى حل فيه منهج الكتاب تحليلًا وافيا بدأه وأنهاه بتقديره وإشادته بغزارة علم الدكتور كامل حسين وجدية نظرتة وأهمية وأصالة محاولاته لوضع تخطيط شامل لتفسير التاريخ على أساس بيولوجى . ولعل الأمانة تدعونى هنا الى الاعتراف بأن هذا المقال هو الذى لفت نظرى عام ١٩٥٧ لمكانة الدكتور كامل حسين كمفكر وأديب . لكن هذا لا يمنع من الاعتراف بأن الأستاذ محمود العالم يأخذ بمنهج المادية التاريخية الذى يرى أن شكل الانتاج وعلاقات القوى المنتجة هى التى تقرر حركة التاريخ على اساس الصراع الطبقي . . وهذا المنهج يقلل دور العوامل الروحية والفكرية فى تطور الحركة التاريخية ، اذ لا يعترف لها بدور أساسى كبير .

ومع ذلك فإن نقده لكتاب « التحليل البيولوجى للتاريخ » يتسم بكثير من الموضوعية ويقدم لنا وجهة النظر المختلفة « منهجا ومذهبا » . وبهذا تتضح لنا بعض جوانب الصورة ويسهل علينا التفكير فى المنهج الملائم لتفسير أحداث التاريخ . وأرى أنه لا يكفى لتحقيق هذا الغرض الاعتماد على منهج واحد بذاته . لكن علينا قبل أن نخوض فى الحديث عن هذه النقطة أن ننظر فيما قدمه هذا الناقد الماركسى .

وهو يرى أن « الدراسة العلمية للأحداث التاريخية لا تدعو حتماً - كما يقول كامل حسين - الى البحث عن الزمن،

بل تهيب أولا بتحليل الأحداث ودراسة ما بينها من علاقات ،
وتحديد قوانين حركتها » . ودراسة ظاهرة تاريخية كالقطاع
مثلا ، تستلزم في نظره الكشف أولا عن عناصر هذه الظاهرة من
قوى إنتاجية وعلاقات إنتاجية ونظم سياسية ومؤسسات فكرية
وملابسات تاريخية عامة ، ثم أن تكشف ثانية عما بين هذه
العناصر جميعا من تفاعل وتداخل وصراع ، وليس هناك منهج
علمي يحتم - كما يرى كامل حسين - أن تنحرف عن هذا المنهج
لندرس أثر الزمن في الاقطاع . مثلا وهو يرى أن مفهوم الزمن
« مفهوم خال من الدقة العلمية » والزمن بغير شك حقيقة
موضوعية ، ليست من صنع عقولنا كما يزعم المفكرون المثاليون ،
ولكنها في الوقت نفسه ليست حقيقة منفصلة عن حركة الأشياء
والأحداث ، بل الزمن شكل موضوعي لهذه الحركة . وعندما
تفصل الزمن عن حركة الأشياء ، فإنا نفقده مضمونه ودلالته
ونجعل منه قوة سحرية غامضة » . ثم يقرر محمود العالم أن
المؤلف يقوم بهذا الفصل بين الزمن وحركة الأشياء . . ويتحدث
« عن مطلق الزمن » وبهذا يخرج عن النهج العلمي الى النهج
المثالي الميتافيزيقي » .

فإذا تجاهلنا دراسة العوامل الاجتماعية التي أوجدت ظاهرة
الرق مثلا والتي جعلت لهذه الظاهرة أشكالها وقوانينها المختلفة،
ثم العوامل التي جعلت الظاهرة تتلاشى تاريخيا واكتفينا بأثر
مطلق الزمن في هذه الظاهرة لا تنهينا الى موقف يفسر قيام

ظاهرة الرق وتلاشيها تفسيراً تلقائياً خالصاً • وهذا لا يساعد أبداً في الكشف عن القوانين الداخلية لحركة الأشياء •

هذا مجمل رأى الأستاذ محمود العالم في فكرة مطلق الزمن ، ولا شك عندى ان الفصل بينها وبين حركة الظواهر يجعل منها قوة غامضة تعادل الفكرة المطلقة أو الكلية في فلسفة هيجل المثالية • بل أن هيجل لا ينسى التفاعل بين العوامل الذاتية والموضوعية في تفسير التاريخ •

والواقع أن الدكتور كامل حسين قد أدرك غموض فكرة الزمن المطلق وتحدث عنها في « وحدة المعرفة » قائلاً ان عجز الانسان عن ادراك حقيقة الزمن وطبيعته ادراكاً مباشراً جعل للمعرفة حداً لن تستطيع أن تتعداه • والزمن حقيقة لا ريب فيها ولكنها أكثر الأمور غموضاً على العقل ، وذلك لأن الانسان ليس له احساس خاص يدرك به الزمن ادراكاً مباشراً ، وانما تدركه بآثره في الأشياء » •

وهو لا يعنى « الزمن الكونى الرياضى الذى يعده الطبيعيون البعد الرابع ، ولا الزمن الفيزيائى الذى يقيس به الرياضيون سرعة جسم ساقط فى أى نقطة من سقوطه • وانما يعنى على التحديد الزمن التاريخى الذى نعرفه بتتابع الحوادث فيه » • « بل انه يؤكد فى « وحدة المعرفة » (صفحة ٤٧) « ان من الخطأ العقلى ان تصور الزمن على انه من عوامل التطور ، ولعل

التطور عملية تركيبية خاصة بما ركب في الكائنات الحية من صفات ، وليس لنا ان نجعل للزمن شأنًا فيه » .

فاذا كان مطلق الزمن لا يصلح عاملا لتفسير التطور في الكائنات الحية الأخرى ، فكيف يكون عاملا حاسما في تفسير حركة التاريخ الانساني رغم تميز الانسان بقوة العقل والضمير والارادة ، وهو ما يقرره المؤلف في « وحدة المعرفة » .

الزمن التاريخي واثره في الانسان :

يرى المؤلف أن الزمن يعمل عمله في الانسان على أوجه ثلاث :

١ - الحياة الداخلية ممثلة في طبائعه وغرائزه .

٢ - الحياة الخارجية ممثلة في مظاهر النشاط الاجتماعي والانساني .

٣ - الحياة العقلية ممثلة في التفكير والعلوم .

وبالنسبة للحياة الداخلية ، فالمؤلف يؤكد انه لا أثر للزمن فيها وتاريخها خط أفقي ثابت فقد ظلت طبائع الانسان وغرائزه على ما هي عليه من آلاف السنين وستظل دون تغير لآلاف أخرى لأنها نتيجة للتركيب الخاص بالنفس الانسانية . (وسيظل الناس يحبون ويكرهون ويؤمنون ويكفرون ويغضبون ويرضون كما كانوا يفعلون من قبل .. وعلى هذا لا يكون لطبائع الانسان وغرائزه تاريخ) .

وهو يرى أيضا أن الجماعات والمدنيات لها صفات غالبية ثابتة فيها ثبوت الغرائز في الأفراد • لكنها ليست مجموعة غرائز الأفراد التي تتكون منهم الجماعة • فغرائز الأفراد تتمثل في الخير والشر ، والايمان والكفر ، وغرائز الجماعة تتمثل في الشعور بالظلم والعدل والحرية والولاء والتمرد •

وانواقح ان هذا الكلام ينطبق الى حد كبير مع ما توصل اليه المؤلف في « وحدة المعرفة » عند تبرحه للجهاز العصبى للمخ وظهور قوى انداء والتفكير في العمل • فهو يعتبر الايمان غريزة لانه متعلق بنظام التطور البيولوجى حين يقول « وادبر المعنويات الانسانية واتسملها واعمقها هو الايمان وهو جماع النظام العقلى لله • وهو مظهر هذا النظام • والدين يحرمون صفه الايمان يدلون بذلك على ان في نظام عقليهم اضطرابا خلقيا يصعب علاجه •• لان الايمان مهما يختلف موضوعه يدل على نظام في التكوين العقلى المخى » •

ولاشك في رأى ان فقدان الانسان للايمان عموما يؤدي الى حالة ضياع واضطراب نفسى يقود للاتجار أحيانا • اننا اذا سلمنا بهذا الرأى عن الايمان ، فقد نفهم ما يعنيه المؤلف حين يرى أيضا أن الخير والشر من الغرائز • لكننى اختلف معه في القول بأن هذه الطباع والغرائز غير قابلة للتغيير • فعواطف الانسان المعاصر ليست بقوة عواطف الرجل البدائى مثلا سواء

كان ذلك بالنسبة للحب أو الكره أو الغيرة • يؤكد هذا عندى ما أوضحه المؤلف أيضا فى « وحدة المعرفة » من ان العقل « يتأثر بالحياة الداخلية التلقائية داخل المخ وهى تتأثر بنظامه الداخلى وبما أدخل عليه الذكاء من تغيير » •

ومعنى هذا ان الذكاء الذى هو نتيجة تجارب مختزنة فى المخ يؤثر فى العقل وبالتالي يؤثر فى هذه المفاهيم التى يرى المؤلف انها غرائز ويرى الأستاذ محمود العالم انها قيم اجتماعية قابلة للتطور والتغيير •

ثم القول بأن الجماعات والمدنيات لها غرائز ، فالعدالة والحرية والشرف أمثلة على الغرائز الاجتماعية • وان المدنية الصينية غريزتها خلقية وغريزة المدنية الهندية ميتافيزيقية وغريزة المدنية بالشرق الأوسط دينية والاغريقية منطقية جمالية ، والرومانية سياسية اجتماعية وغريزة المدنية الغربية طبيعية تجريبية • « وهذه الصفات لا تفارق المدنيات من أول أمرها الى آخره وليس للزمن عليها تأثير كبير » •

ولا أعتقد ان هذه الأشياء تدخل تحت باب الغرائز أبدا ، فهى فى رأى مجرد مظاهر لمراحل تاريخية معينة ، وطول هذه المراحل وبطء التطور التاريخى هو الذى يجعل لها الغلبة على المظهر العام • لكن ثبوتها أمر مستحيل • ولا أعتقد أن التطور

العلمى والصناعى فى الصين واليابان يتم الآن على أساس خلقى بل على أساس طبيعى تجريبى • وهذا يبين أن الطبيعة التجريبية انما جاءت تطورا للطريقة العلمية التى بدأت منطقية جمالية فى اليونان وتجريبية عملية فى بعض بحوث الكيمياء فى الشرق الأوسط فى العصر الوسيط ، ومنها انتقلت الى أوروبا لتزدهر فى ظل النهضة الأوروبية وقيام الدول الحديثة مدعمة بالامكانيات المادية التى حققتها الدول الغربية نتيجة استثمارها لدول آسيا وأفريقيا • ولو تماثلت ظروف التطور التاريخى لـ جميع الدول وهذا فرض مستحيل ، لتبنى العالم كله هذه الطريقة التجريبية •

أما الأستاذ محمود العالم فيقول « فالطبيعة التجريبية مثلا ليست غريزة المدنية الغربية وانما هى ظاهرة فكرية تقوم على أسس اجتماعية وتاريخية • انها ثمرة للثورة الصناعية وللنظم الرأسمالية وهى لا تقف عند حدود الغرب وانما تصاحب النظام الاجتماعى سواء تحقق فى الهند أو فى الشرق الأوسط ، وهى تتطور وتنمو كذلك فى ظل النظم الاشتراكية سواء تحققت هذه النظم فى الشرق أو الغرب » •

ولعله يبدو الآن واضحا انه لا ثبات ولا جمود فيما يسميه المؤلف بغرائز الأفراد ، والجماعات والمدنيات • فكل شئ يدركه التعديل والتبديل اذا تهيأت الظروف الاقتصادية والسياسية

والاجتماعية • وأعتقد أن بلدنا وهى من بلاد المدنية الدينية لا ترفض الطبيعية التجريبية الآن بل أن حربنا مع اسرائيل أدت فى مرحلة ما قبل أكتوبر الى التجريب فى الأسلحة والمعدات والكبارى وهدم جسور التراب التى اقامتها اسرائيل على الضفة الشرقية لقناة السويس مما يعطى الدليل على ان العقل المصرى قابل لهذه الطريقة وقادر عليها لو تهيأت له الامكانيات ، كذلك الفصل بين ما يسميه الدكتور كامل حسين بالحياة الداخلية والحياة الخارجية انما يشكل نوعا من الثنائية الفكرية التى هدمها الدكتور بنفسه فى « وحدة المعرفة » وخاصة فى حديثه عن مشكلة النفس حيث يقول (ص ١٧٣) :

« فعلينا ألا نبقى على النفس على أنها شىء مستقل عن الجسم يؤثر فيه دون أن يكون منه • وعلينا أن ننظر الى النفس والشخصية على أنهما صورة النظام الداخلى للمخ » •

فالحياة الانسانية تفاعل بين ما هو ذاتى وما هو موضوعى • بين ما هو داخلى وما هو خارجى ، وهذا التفاعل عملية دائمة النمو والتغير تتأثر بظروف البيئة والمجتمع والحياة العقلية وتؤثر فيها ولعل هذا يتلاءم أكثر مع قوانين التطور الطبيعى التى أثبت الدكتور صحتها فى « وحدة المعرفة » وأعطينا الأمل والثقة فى مزيد من التطور ومزيد من العلم •

ومهمة العلم هو أن يكشف القوانين الداخلية للتفاعل الحادث بين الحياة الداخلية والحياة الخارجية لكن المؤلف على حد تعبير محمود العالم « يفصله الزمن عن حركة الظواهر النفسية عجز عن ان يتبين حركتها المتناسجة مع حركة الظواهر الاجتماعية ، وأصبح عامل الزمن عامل اخفاء وطمس لقوانين هذه الظواهر لا عامل تحديد وتنظيم وكشف » •

وحين ننتقل لموضوع الفنون نجد أن منهج المؤلف يتضح كثيرا في عملية الفصل بين الشكل والموضوع في الفن بطريقة حادة ترفضها كل مدارس النقد الحديث تقريبا •

الفنون :

فالدكتور كامل حسين يرى أن الفنون هي الصورة التي يعبر بها الانسان عن طبائعه وغرائزه وعواطفه • وهي تتعلق بالحياة الداخلية للانسان وتاريخها من هذا الوجه قليل التغير ، ولا يتقدم تقدما مطردا على الزمن • ولهذا فان تاريخ الفنون يكاد كله يسير على نهج واحد •

ان موضوعات الفنون واحدة لا تتغير لأنها ترتبط بالطباع والغرائز والعواطف التي لا تتأثر بالزمن • « والتغير الذي تراه في فنون الأفراد يرجع الى زيادة خبرتهم بوسائل الأداء وتحسن أسلوبهم وليس هذا تغيرا حقيقيا » • فالتغير يطرأ على الأسلوب

فقط لأنها « أعمال انسانية خاضعة للاختيار والذوق ويؤثر فيها الملل فتاريخها من هذا الوجه دورى على نحو ما » •

فالمذاهب الفنية تظهر بطريقة دورية بدافع الملل الذى لولاه « لرضى الناس بالكمال دائما » وهنا تبين عدة مراحل فنية أو مدارس يتوالى ظهورها على النحو التالى :

✱ بعد مرحلة الطفولة تأتى المرحلة الكلاسيكية حين تكتمل أساليب التعبير نتيجة ظهور عملاق يبلغ بالفن حد الكمال طفرة •

✱ ثم مرحلة الصنعة والتقليد بعد أن تعرف قواعد الجمال •

✱ يليها مرحلة الثورة على الكلاسيكية أو الرومانتيكية التى تقوم على الدعوة للعودة للطبيعة •

✱ بعد هذه المرحلة تبدأ مرحلة التقلبات فى الفن « فنراه يرتفع قليلا فلا يبلغ أسمى مراتب الرقى ، ثم نراه يهبط دون أن يبلغ غاية الانحطاط » •

ومن العناصر الأساسية فى تاريخ الفن ، ان الفنون عمل فردى فى جوهره فهى تزدهر فى عصور التفوق الفردى والملكية المطلقة تساعد على ازدهار الفنون لاتفاق العصرين فى التفوق

الفردى • وتفوق الجماعات لا يساعد على ازدهار الفنون •
وتقدم العلوم يؤدي الى اضعافها •

وفيما يختص بتقسيم هذه المراحل وتتابعها أو ما يقوله المؤلف عن سماتها فهو أمر لا خلاف عليه وتاريخ الفنون يؤكد •
كذلك الأمر بالنسبة لظهور العبقريات الفنية في عصر التفوق
الفردى • لكن ارجاع هذه الدورية لعامل الملل وحده فهو أمر
ليس من السهل الاقتناع به خصوصا وان الملل حالة نفسية
فردية لا جماعية • ولا تكفى لتفسير ظهور مدارس الفن المختلفة
كالرومانتيكية أو الواقعية مثلا • لأن هذه المدارس كانت تعبرا
عن متغيرات عديدة في النواحي الاقتصادية • والاجتماعية
والسياسية •

وليس الاختلاف بين الواقعية أو الرومانتيكية وبين
الكلاسيكية مثلا مجرد اختلاف في الأسلوب أو الأشكال الفنية •
بل كان اختلافا في هدف الفن ومضمونه أيضا •

وعلى هذا لا يمكن الفصل — بطريقة حادة — بين أسلوب
الفن ومضمونه كما فعل المؤلف ، وقد حدث ذلك لأنه جمد
مضمون الفن وفرق بين مذاهبه أو مراحله على أساس الأسلوب
فقط •• وتبعاً لهذا أصبح تاريخ الفن عنده هو تاريخ الأساليب
الفنية •

الأديان :

يقول المؤلف « الايمان غريزة من أقوى الغرائز الانسانية » ... ومن حيث هو غريزة لا تاريخ له • بل هو مثل الحب سيظل قائما في النفس الانسانية ما دام الانسان انسانا • والدين هو هذه الوسيلة للتعبير عن الايمان تعبيراً منظماً ومن هذه الناحية لا يختلف تاريخ الأديان عن تاريخ الفنون • وتظهر مراحل تطورها على النحو التالي في مراحل تشبه الفنون تقريبا •

* تبلغ الأديان غايتها من الرقى بظهور الأنبياء ونزول المقدسات السماوية •

* يعقب ذلك عهد أقل منه عظمة حيث « يصبح الناس أكثر عناية بالعبادات منهم بالايمان • والعبادات هي المظهر الخارجى للدين • والعناية بها كثيرا ما تكون دليلا على ضعف الايمان النفسى العميق • وهو بالضبط ما عابه سيدنا عيسى على المتدينين الفريسيين من بنى اسرائيل » •

* ثم يقوم الأولياء والقديسون في عصور مختلفة يردون الناس الى الايمان الحق وينادون ببذ التدين الكاذب • ولا يزال الدين يقوى على التوالى ، لكنه لا يبلغ

القمة ، ولا يبلغ الحضيض حين يضعف • لكنه لن
يندثر ولن يقضى عليه •

فالدين يظهر في أول المدينيات ويبلغ أوجه بعد قليل ثم يعلو
ويهبط • وهذه الدورية في تاريخ الفنون • إلا أنها أطول وأبعد
مدى وأقل تغييرا من دورية الفنون لأن النفس لا تمل العبادات —
وهي وسيلة التعبير عن الايمان — كما تمل وسائل التعبير في
الفنون • • والدين كالفنون يبلغ القمة في عهود الحكم الفردي •
وتعلق رجاله بالسلطان أمر طبيعي •

الحياة الخارجية :

وهي عند المؤلف تشمل مظاهر النشاط الانساني كلها
بما فيها الفنون ، وأعمال النشاط الاتجاري الاقتصادي وأوجه
النشاط الاجتماعي المختلفة • وأثر الزمن في هذه الحياة الخارجية
دوري • وتاريخها سلسلة متعاقبة من العلو والهبوط على اختلاف
في درجات كل منها •

« والدورية ليست غريبة عن القوانين البيولوجية ، فحياة
النبات دورية صريحة • وكثير من حياة الحيوان وخاصة الاناث
دورية • وأصل هذه الدورية صفة كائنة في المادة الحية
تفسها » •

« هذه المادة لها صفتان هما قابليتها للتأثر بالعوامل

الخارجية ، وقابليتها لمقاومة هذه العوامل • والتوازن الذي نراه في المادة الحية ليس توازناً ثابتاً وإنما هو توازن قلق ينشأ من تعادل هاتين القوتين » •

« وهذه الدورية الثابتة في أصل الحياة موجودة في التاريخ • ومن آثارها ما يصح أن نسميه النبض التاريخي •• وتختلف هذه الدورات في مداها وقوتها • وهي كالدبذبات أو الأمواج تختلف سرعة وبطأ وعلوا وانخفاضاً ، وهي مركبة بعضها فوق بعض ، فهناك دورة عامة قد تشمل الجزء الأكبر من العهد التاريخي كله ، وفي أثناءها دورات أصغر منها ، وفي أثناء هذه دورات أقل » •

وكما يرى المؤلف ان هذه الدورية هي أثر الزمن في النشاط الانساني ، فان العامل المحرك لها هو الملل • وهذا العامل يرجع أيضا الى أصول بيولوجية • لا نزاع في أن المادة الحية تتأثر بالعوامل الخارجية وتستجيب لها الى حد ما • فاذا استمر عامل منها مدة طويلة أصاب المادة الحية منه التعب أو الملل فيصبح العامل أقل أثرا » •

وهكذا يجد المؤلف في الملل قانونا عاما يفسر به حركة التاريخ الانساني وظواهره الاقتصادية والاجتماعية •
ويعلق الأستاذ محمود العالم على هذا التخطيط العام بأن

المؤلف انتهى اليه نتيجة فصله الزمن عن حركة الأشياء التاريخية مما أدى الى قصر حركة التاريخ البشرى على هذا الشكل المحدود الذى يسميه المؤلف بالدورية .

✱ أدرك المؤلف عجز مطلق الزمن وحده فى تفسير حركة التاريخ فلجأ الى عامل نفسى خالص هو الملل « ليجعل منه القوة المحركة للتاريخ ، الموجهة لمساراته » .

✱ وفى رأيه أيضا ان استفادة المؤلف بالبيولوجى لاتستقيم مع المفاهيم الجديدة لهذا العلم ، ولا تستفيد من حقائقه فى تحديد نظرة علمية سديدة .

(فلاشك ان الدورية صفة لكثير من الظواهر البيولوجية فهى صفة لكثير من الظواهر الحية فى النبات والحيوان والانسان ولبعض الظواهر الاجتماعية ، ولاشك كذلك ان الدورية ثمرة توازن قلق - على حد تعبير المؤلف « صفحة ١٦ » - بين عوامل داخلية وعوامل خارجية ، على ان المسألة ليست كما يرى المؤلف مجرد تعادل بين هذه العوامل ، وهنا نلمح أثر لنظرية توفيق الحكيم ، انها هى فعل وتفاعل وامتصاص وبذل وهدم وبناء وتعويض واكتساب وصراع ونمو .. وهى عمليات متشابكة فى الكائن الحى .. ولكن المؤلف يتجنب الاستفادة من هذه العمليات الداخلية جميعا ، مكتفيا بظاهرة عامة هى الدورية التى

لا تبرز بوضوح قوانين الحركة الداخلية للظواهر الحية بقدر
ما تقدم صفة عامة لهذه الظواهر) •

ورأى الخاص هو أن الدكتور كامل حسين قد قدم بنفسه
الأساس العلمى الذى يدفعنا للاحتجاج على منهج تفسيره للتاريخ
على أساس عاملى مطلق الزمن والمثل وذلك فى كتاب (وحدة
المعرفة) الذى نشر بعد ذلك بسنوات •

ففى حديثه عن التفكير والارادة وهما صفتان يتميز بهما
الانسان على سائر الكائنات الحية يقول المؤلف عن المنخ « وليست
وظيفته الوحيدة أن يستقبل ويخترن • بل أن له حياة داخلية •
وهناك فرق كبير بين أى جهاز الكترونى صناعى مهما عظم والمنخ
الانسانى ذلك ان تفاعلات الحياة فى الخلايا تخلق تيارات
تسلك المسالك التى مهدتها لها الطبيعة أولا والتى مهدتها لها
العوامل الخارجية ثانيا ثم هى تغير من هذه المسالك على قدر
قوتها أو ضعفها وتوافقها أو اختلافها • وعلى قدر توافقها مع
المسالك الداخلية التى يحدثها وجود الحياة فى خلايا المنخ • هذه
التفاعلات الجديدة تكون التفكير والارادة • وهى من عمل حياة
الخلايا نفسها وهى تتأثر بالمسالك القديمة وتؤثر بدورها فى هذه
المسالك » •

وهذا يعنى أن قوة التفكير والارادة لهما أثر على المسالك

الموروثة أو القديمة في المخ أى أن الفكر والارادة هما عملية تفاعل بين الداخل والخارج وبنشوء الضمير قد أصبح لهما أخطر الأثر في حياة الانسان وعلى هذا يصبح تفسير التاريخ الانساني على أساس عوامل بيولوجية بحتة مرحلة سابقة تجاوزتها أفكار المؤلف نفسه في كتاب « وحدة المعرفة » *

ولكن هذا كله لا يمنع من المضي في تحليل هذا الكتاب حتى تبين جيدا كل نتائج هذا المنهج وهي تتضح أكثر في تطبيقه على التاريخ السياسى القومى الذى يقسمه المؤلف الى أربعة عهود هي (صفحة ٥١ - ٥٢) :

١ - عهد تفوق الفرد على الجماعة - وفيه تخضع الجماعة للفرد خضوعا تاما يقرب من العباداة وفيه أيضا تنمو الأمة وتبلغ الحياة القومية أوجها ويسمى هذا بالعصر الذهبى *

وهو عصر لويس الرابع في فرنسا واليزابيث الأولى في إنجلترا وفردريك الأكبر في ألمانيا والقيصر بطرس الأول في روسيا *

٢ - والعهد الثانى هو عهد تغلب الجماعة على الفرد ويتم هذا غالبا عن طريق الثورة كما حدث بالنسبة للثورة

الفرنسية وثورة الانجليز على تشارلس الأول ،
وكذلك الثورة الروسية ١٩١٧ •

٣ - وفي العهد الثالث يستعيد الفرد تفوقه على الجماعة ،
ويكون ذلك عادة لفترة قصيرة وهو عهد نابليون
وكرومويل وهتلر وستالين •

٤ - أما العهد الرابع فيتم فيه النصر الثاني للجماعة •
وهذا أيضا من آثار الدورية التاريخية وهو عهد
الجمهورية الثانية في فرنسا وعهد الحياة البرلمانية
في انجلترا وهذا هو العهد الحاضر في كل من ألمانيا
والروسيا •

« على أنه يلاحظ أن التاريخ لا يعود القهقري • وإن غايته
تغلب الجماعة على الفرد • وإنه حين يبلغ تاريخ أمة هذا العهد
يصبح من المستحيل على الفرد أن يتغلب على الجماعة مرة ثانية •
لهذا يستطيع التاريخ أن يؤكد أن ظهور عظماء الرجال الذين
يتحكمون في مستقبل أمتهم أصبح مستحيلا في فرنسا وانجلترا
وأمریکا » •

ولا يملك الانسان الا الاعجاب والتسليم بصحة هذا
الاستنتاج الأخير • فالتاريخ المعاصر يؤكد فعلا استحالة تحكم

الفرد في مصير أى دولة من الدول الثلاثة التى ذكرها المؤلف سواء كانت فرنسا أو أمريكا أو إنجلترا .

لكن هذا التطور الذى طرأ على حياة هذه الأمم لا يمكن رده الى عامل مطلق الزمن وحده أو عامل الملل الذى يحرك هذه الدورية كما يقول المؤلف . كذلك لا يكفى هذين العاملين في تفسير قيام وسقوط هذه النظم الاجتماعية أو العهود التاريخية كما يسميها المؤلف .

فالعهد الأول الخاص بتفوق الفرد المطلق على الجماعة هو عصر الاقطاع حين كان الملوك يحكمون فيه الشعوب بالحقق الالهى المطلق . وتكون ظاهرة الاقطاع أو تلاشيها لا يمكن رده الى عامل واحد بعينه أو عاملين معا فقط كعاملى مطلق الزمن والملل . فهذا يعنى أن الظواهر الاجتماعية تتكون وتتلاشى تلقائيا أو قضاء وقدر . دون تدخل الارادة الانسانية كلة . وهذا أمر يصعب تصديقه ، ولا تؤكد وقائع التاريخ .

فالتاريخ يثبت أن سقوط النظام الاقطاعى في كل من إنجلترا وفرنسا قد سبقه تحولات فكرية واجتماعية كبيرة وأهمها ظهور الحركة الانسانية ابان عصر النهضة التى قامت على أساس ان الانسان سيد مصيره وسيد الكون وطالبت بالفصل التام بين السيادة الدينية والسلطة الدينية أى بين الكنيسة والدولة .

وعلى هذا حطمت الأساس الأول لحق الحكم المطلق الذي كان يستند عليه الملوك .

كذلك كانت محاولات النبلاء في الحصول على مزيد من السلطة والنفوذ في إدارة حكم البلاد وأعتقد أن الماچنا كارتا ١٢١٥ والثورة الانجليزية ١٦٤٨ بقيادة كرومويل لخير الأدلة على ذلك . وفي فرنسا كانت هناك محاولات متشابهة بالإضافة الى الحركة الفكرية التي بدأها روسو وانتظم فيها الكثيرون مثل مونتسكيو وفولتير وغيرهم ، والتي مهدت السبيل لانتشار الأفكار ، الثورية واندلاع الثورة الفرنسية في نهاية الأمر التي قضت على هذا النظام وأقامت حكم البرجوازية النامية على أنقاضه .

كل هذا يثبت ان هناك عوامل كثيرة موضوعية تتحكم في حركة هذه الظواهر . وان هذه العوامل الداخلية المتشابكة هي التي تجسد القوانين الداخلية للظواهر وهي المسئولة عن سيادتها أو تلاشيها في زمن معين أو مكان معين .

كذلك- تفسير هذه الظواهر على أساس العامل الاقتصادي فقط المتمثل في طبيعة العلاقات الانتاجية أو في « سيادة شكل من أشكال الانتاج » كما يفعل الأستاذ محمود العالم أمر لا يمكن التسليم به علي اعتبار أنه العامل الوحيد والحاسم . لأن تعقد

الظواهر التاريخية على مدى التاريخ كله لا يشيخ ذلك ، وهو ما أدى الى تعدد مناهج تفسير التاريخ دون أن يتمكن منهج واحد أو مدرسة واحدة من اكتشاف كل الأسرار أو القوانين التي تحكم حركته وتوجه مساره .

وبناء على هذا ، لا يمكن تجاهل الاختلاف الوظيفي بين الثورة الفرنسية والثورة الروسية ووضعهما في مستوى واحد وفي دورة تاريخية واحدة كما فعل الدكتور كامل حسين .

فوظيفة الثورة أو أهدافها تكون دائما من العوامل الداخلية التي تحدد وسائل هذه الثورة وشكلها . وهو أمر يرفضه الدكتور كامل حسين ضمن رفضه لمذهب الغائية الفكرية الذي يرفض القول بوجود غاية لكل نظام تؤدي الى تحديد الوسائل اللازمة لقيامه ، ويصر على أن النظام هو الذي يؤدي بتطوره الطبيعي الى وجود الغاية . وليست الغاية هي التي توجهه .

ولعله في نطاق المبدأ يعترف للثورات بغايات حين يقول في (صفحة ٥٧) . . « ونجاح الثورات يتعلق بزمان وقوعها ، وموقع أغراضها من تاريخ الأمة التي تقع فيها ، وتاريخ العصر الذي تقوم فيه . فاذا وافق غرضها تاريخ الأمة كان نجاحها محققا . وإذا حدث وكان ذلك موافقا لروح العصر كان نجاحها آتيا وأثرها

أبقى » • فهو لا يرفض الغاية نهائيا وانما يرفض أسبقية هذه الغاية أو فرضها مسبقا للثورة قبل أن تتحقق •

والواقع ان الغايات تكون استجابة لمطالب شعبية ملحة أو تحديات تاريخية وهذا ما يجعل أمر نجاحها ميسورا •

الا ان الدكتور كامل حسين لا يفرق بين طبيعة الثورات وطبيعته الحروب فأتلا » الثورات تشبه الحروب في طبيعتها وفي أسبابها ، وظروف نجاحها او اخفاقها • ولا يفرق بينها الا ان الثورات حروب أهليه ، والحروب ثورات دولية • وان كان يحمده لرفضه اعتبار » الحروب أمر طبيعي في الانسان « والذين يقولون بهذا » يلتمسون الحجج في ما يدعونه من أن تنازع اليفاء وبقاء الأصلح قانون طبيعي في حياة الحيوان • • وهذا خطأ • • فان كان التفوق أمرا طبيعيا فان بقاء امتيازات التفوق أمر غير طبيعي • والقانون البيولوجي الذي يقول بتنازع البقاء ليس في الواقع صوابا •

وقديما قامت الحروب الاستعمارية للحصول على امتيازات مستباحة ليست من حق أو نصيب أحد من الناس • • ولم يعد هذا سببا من أسباب الحروب الحديثة • انما تقوم الحروب الحديثة حين يكون هناك تناقض في الحياة الدولية يجعل بعض الدول متمتعة من غير حق ، وغيرها محرومة من غير حق ، ومن أسبابها

اختلاف تاريخ أمتين اختلافا جوهريا • فتكون أحدهما فتية قوية تاريخها في صعود ، وأخرى صاحبة امتيازات قديمة وتاريخها في دور الجزر • هذه الحال هي التي أدت الى حرب السبعين والحريين العالميتين •

ومن هذا ينتهي المؤلف الى أن التاريخ الحديث سينتهي الى زوال الامتيازات من أى نوع • والنتيجة المحتومة للحروب الحديثة هي القضاء على كل لون من ألوان الامتيازات ، وأثر انتصار بريطانيا في الحريين دليل هذه الحقيقة الواضحة •

الحرب الثالثة :

ويرجح المؤلف وقوع الحرب الثالثة على أساس تاريخي هو « أن الحروب تتسع دائرتها المرة بعد المرة ، وتاريخها ينقصه أن تقع حرب بين نصفى العالم » • وذلك لأن الدول الكبرى لاتزال تتمتع بامتيازات لا نريد ان تتنازل عنها طواعية على الرغم من زوال التفوق الذى تقوم عليه • ولا يمنع قيام هذه الحرب الا شىء واحد هو ازدياد قوة الجماهير ، وقدرة تفكير واحتمال عدم خضوعهم لقادتهم حين يؤمرون ان يقتلوا ويقتلوا • « على انه اذ لم تقع هذه الحرب في عشر سنوات فسيكون من شأن عوامل منعها ان تغلب فلا تقع حرب عالمية أبدا » •

وهي نبوءة صادقة حتى الآن • فقد مضى ربع قرن أو يزيد

على صدورها عام ١٩٥٥ وهو تاريخ نشر الكتاب ، ولم تقع الحرب العالمية وأعتقد ان أسباب منعها بدأت تتغلب فعلا في ظل الوفاق الدولي السائد الآن بين القوتين الكبيرتين •

ثالثا - تاريخ الحياة العقلية :

وهي عند المؤلف تتمثل في الفكر والعلوم وتتعلق بما يمكن البرهان عليه عقلا • ولا يعترى المادة الحية منها التعب أو الملل • وهي لهذا أكثر الأشياء تأثرا بالزمن • وأثر الزمن فيها انه يزيدها نموا على الدوام • وهي ليست خاضعة للمل وهو أصل الدورية •

والحياة العقلية أهم ظواهر الحياة في المدينيات • وهي دائمة النمو ، فكان على المدينيات أن يكون نموها مطردا لا نهاية له • ولكن هذا يخالف الواقع • فلكل مدينة نهاية • والواقع ان المدينيات - وقوامها طريقة تفكيرها ، وأسلوب بحثها ، وموضوع درسها - لا تنقرض ولا تموت ولا تضعف بعد قوة وانما تقف • والسبب ان لكل طريقة تفكير حدا لا تستطيع بعده أن تزيد من علم الناس • فنراهم عند ذلك ينصرفون عنها يبحثون عن طريقة تفكير أخرى تفتح لهم آفاقا جديدة • كذلك كانت نهاية المدينة اليونانية • فقد وقفت عندما أصبحت طريقتهما في العلم ، وهي الطريقة الاستنتاجية ، عاجزة عن ان تزيد في علوم الناس •

ولا ينطبق هذا على المدنية الغربية الذى يظن البعض انها دخلت دور الانحطاط فالمدنية الغربية — وهى تحليلية تجريبية — ستستمر مادامت قادرة على زيادة علمنا •• ولن تقف الا حين تصبح فى حاجة الى وسيلة أخرى غير التحليل والتجريب لزيادة علمنا بأسرار الكون (ص ٦٤) •

ولاشك ان الحياة العقلية هى أهم ظواهر الحياة فى المدنيات ، ولكن هذا لا ينفى تأثيرها بعوامل أخرى غير مطلق الزمن •

فالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية تؤثر فى توجيه الحياة العقلية أيضا • وتوقف مدنية هو نتيجة لكل هذه المؤثرات التى تؤدى الى انصراف الناس عن طريقة التفكير الخاصة بهذه المدنية •

العلم ومستقبل الانسان :

والذى يقرأ هذا الكتاب تملأ نفسه روح الثقة والتفاؤل بمستقبل العلم ومستقبل الانسان • فالمؤلف يؤكد أن تقدم العلم يؤدى الى زيادة كل قوة فى الانسان زيادة تمحو الفروق بين الأفراد والأمم ، حتى الذكاء أو شك العلم أن يقضى على امتيازاته بين الأفراد • فالتكنولوجيا جعلت ضعف الذكاء قادرين على مجاراة الأذكاء فى دقة المشاهدات وقياسها • وبهذا يؤدى العلم

الى المساواة بين الناس • ويتأكد ايمانه بهذا المستقبل في تحليله
للنظم السياسية المختلفة •

الديمقراطية والشيوعية :

وهو يقرر انه ليس في عالم السياسة أخطر وأجدر بالبحث
من هذين المبدأين والنظم القائمة عليهما • وهما يتفان وجهها
لوجه وقد يقع بينهما صراع لا ينجو منه غالب ولا مغلوب •

وهو يرى أن مبادئ الشيوعية خير من تاريخها وآراؤها
خير من أعمالها • أما الديمقراطية فتاريخها خير من مبادئها
التي لاتزال تعترف بامتيازات الفروق بين الناس • بعكس
الشيوعية التي تدعو الى القضاء على الامتيازات الطبقية على
أسس علمية ثابتة يحتملها التاريخ • لكن التطور التاريخي في رأيه
يثبت ان النظريات الاجتماعية والاقتصادية في الشيوعية تقدمية
بينما النظام السياسي للشيوعية رجعي وينتهي من المقارنة بينها
الى الرأي التالي :

« فاذا كانت كفة الشيوعية راجحة في الاجتماع والاقتصاد
من ناحية صواب المذهب ، فان الديمقراطية راجحة فيهما من
الناحية العملية • أما من ناحية النظام السياسي فكفة الديمقراطية
راجحة تاريخيا من غير شك رجحانا يحقق لها النجاح » •

ومن هذا تتبين انه ليبرالى يؤيد النظام الديمقراطى الذى يحقق العدالة الاجتماعية والمساواة السياسية فى آن واحد .

كلمة اخيرة :

يخيل الى بعد أن فرغت من هذا التحليل أن الدكتور محمد كامل حسين - رحمه الله - قد أدرك قصور منهج التحليل البيولوجى القائم على مطلق الزمن والمثل فى توجيه دورات التاريخ ، وأن بعض المآخذ التى ذكرت قد صححها هو فى كتاب « وحدة المعرفة » الذى صدر على ما أعتقد بعد ذلك بسنوات . كما يؤيد ذلك رأى عندى ما أخبرنى به الدكتور محمد جلال موسى ابن أخته من أنه جمع نسخ كتاب « التحليل البيولوجى » من المكتبات قبل توزيعه (١) . لكن هذا لا يقلل من أهمية الكتاب كمحاولة فريدة فى اللغة العربية لاكتشاف منهج لتفسير التاريخ الانسانى ، كما أن اختلافنا مع المؤلف لا يعنى انكار هذا المنهج كلية أو انكار فضل المؤلف فى لفت اهتمام المفكرين الى العامل البيولوجى ودوره فى حركة التاريخ .

كذلك فان قراءة هذا الكتاب والتمعن فيه كفيلة بأن

(١) ربما ترجع عملية جمع الكتاب من التداول الى خشية المؤلف من اساءة تفسير بعض أفكاره خصوصاً ما يتعلق بهجومه الشديد على ديمقراطية الوطنى والقومية المتطرفة ، وكانت القمادة الثورية قد أخلت حينذاك ترفع شعار القومية العربية وتشدد عليه .

تحرك كل قوى الفكر والخيال في القارئ • فهو في رأى — رغم
صغر حجمه — بعد موسوعة معارف علمية وفلسفية وسياسية
في آن واحد تجعل من الاطلاع عليه متعة ، ومن الالمام به ثروة
فكرية وعلمية لا تجتمع في مئات من الكتب المنشورة في
ساحتنا الآن •

أضف الى ذلك قدرة هذا العالم الفيلسوف في ترتيب
أفكاره وعقد المقارنات وإبراز الفروق الدقيقة بين المذاهب
والأفكار مما يجعل مراجعته من وقت الى آخر رياضة عقلية تزيد
من نشاط الفكر وتدفعه الى أرحب الآفاق •

منهج جديد لوحدة المعرفة

وكتاب « وحدة المعرفة » للدكتور محمد كامل حسين ، يمثل محاولة طموحة وجريئة لاستنباط منهج علمي جديد لتفسير تطور المعرفة الانسانية وحل معضلاتها .. وذلك بكشف الترتيب الطبيعي للقوانين الكونية التي تحتم هذه الوحدة واستقرارها .

وهو كتاب فريد وخطير في آن واحد . ودليل فرديته انه أول كتاب عربي تقريبا يتصدى لوضع نظرية للمعرفة في العصر الحديث ، مستندا في ذلك الى أحدث ما أنجزته العلوم الطبيعية من اكتشافات وما توصلت اليه من حقائق تؤكد ثبوتها بشكل قاطع . وهو خطير لأنه يدخل الى ميدان الفكر الانساني مسلحا بهذا المنهج العلمي الجديد ، بل انه يتصدى لهدم كثير من الأبنية والمفاهيم الفكرية والفلسفية والدينية التي لا تطابق ما اكتشفه العلم من حقائق الكون .

وطموح هذا المنهج لا يقف عند حد ، فهو يسعى لاكتشاف الأصل الطبيعي للأخلاق والضمير والفنون والحب ، وكذلك التفسير الطبيعي لاختلاف الأديان .

وربما كانت هذه المسألة من الأسباب التي أدت الى اغفال هذا الكتاب وتجاهل أمره . فرغم أهميته الشديدة بالنسبة لمسار الفكر العربي المعاصر فلم يكتب عنه أحد من المفكرين أو النقاد . وقد يعلل هذا الموقف بصعوبة هذا الكتاب نتيجة تعمقه في

مسائل وتفاصيل علمية بحتة لا تستهوى الكثيرين من كتاب الصحف والمجلات خصوصا وأن البحث يتطرق الى مسائل فلسفية متشابكة لا يصبر عليها الا ذو الاهتمامات العامة المتعمقة أيضا .

أما بالنسبة لى ، فغاية جهدى أن أوفق فى تحليل وعرض هذه النظرية الفكرية الجديدة بصورة تجعلها أيسر فهما وأكثر قبولا لدى أمثالى من عامة المثقفين .

ولذلك على أساس من التسليم المطلق بصحة ما أورده المؤلف من حقائق علمية دقيقة لا أملك - بحكم تخصصى الأدبى واهتماماتى العلمية العامة - ما يؤهلنى لمناقشتها أو التشكيك فيها . لكن هذا لا يمنع من مناقشة النتائج الفكرية المترتبة على هذه الحقائق كلما لزم الأمر . وحسبى هذا ، فالأهم عندى هو أن ألم بمنهج هذا المفكر العظيم وفلسفته كما تتبلور وتتضح فى هذا الكتاب . وهو أمر ضرورى فى سبيل تفهم أعماله الأخرى . فلنبداً به ، وعلينا بالصبر مع بعض التفاصيل اللازمة لتحقيق هذه الغاية .

هرم مقلوب الوضع :

فالكاتب يرى ان صورة المعرفة الانسانية الآن مضطربة مفككة ، بها كثير من الشوائب . لأن العقل حين أخذ نفسه

بالبحث في أسرار هذا العالم لم يبدأ حيث يجب البدء ، ولم يقدر
لعلمه أن ينمو نموا طبيعيا ، ولم يقدر له أن يلم بأشتات هذا
العلم فيراه جملة واحدة •

« ومدار البحث في هذه الرسالة غايته الجمع بين فروع
المعرفة جميعا بما يبين لنا الصورة الكاملة للمعرفة كلها • عند ذلك
تبين وحدة التفكير ووحدة النظم الكونية ويكون علينا اذا
اتسقت لنا الصورة الكاملة ، ان نسقط من المعرفة كل ما لا يتفق
وهذه الصور » •

فالمعرفة قائمة على هرم مقلوب الوضع يتناقض مع الترتيب
الطبيعي للقوانين الكونية الذي يبدأ بقوانين المادة ، ثم تتلو ذلك
قوانين الحياة وهي أكثر تعقيدا ورقيا • ثم تأتي بعدها قوانين
الانسان وهي أخص وأرقى وأكثر تعقيدا من قوانين الحياة •
ولو أن المعرفة بدأت على هذا النحو ، وتقدمت على هذا
الترتيب ، ما أصابها من الاضطراب ما نراه اليوم • ولكنها بدأت
بالانسانيات ثم أتبعها بعلوم الحياة ثم بالماديات • النظام
الكوني يبدأ من أسفل الى أعلى ، ونظام المعرفة بدأ من أعلى
الى أسفل ومن هنا كان الاختلاف » •

وسبب هذا الاختلاف ان الكشف عن قوانين المادة
يحتاج الى أجهزة دقيقة معقدة لم تكن في متناول الانسان عند

أول عهده بالتفكير • • ولذلك خفيت قوانين المادة حتى عصرنا
هذا • أما جهاز الكشف عن الانسانيات فهو التفكير الخالص •
وكان البرهان القاطع على صواب أى أمر من الأمور هو مطابقته
لنظام العقل • ومن ثم أصبح المنطق معيار الحقيقة • وحسب
المفكرون ان كل ما هو منطقي يكون بهذا الوصف وحده حقيقة
مطابقة للواقع • وهذا خطأ ، لأن « التفكير الحديث يرى
أن المذهب الحق هو الذى يتفق والقوانين الطبيعية الأخرى
المادية والحيوية والانسانية » •

والمؤلف يثق ثقة كاملة بالعلم الحديث وما حققه من نتائج ،
بل أن ثقته تملأنا بالأمل فى قدرة هذا العلم على تخليص
الانسان من بعض أزماته الفكرية وما يترتب عليها من تعصب
أو غرور ومن شك أو اهتزاز لأنه سيقدم لنا اليقين •

ولاشك أن اتفاق البشر على حقائق الفكر والعلم سوف
يقرب بينهم ويزيد من فرص التفاهم والصداقة • وتتضح ثقة
المؤلف بالعلم وبتأثيره حين يقول :

« والاصلاح المنهجى الذى ندعو اليه يقوم على انه حان
الوقت الذى نستطيع فيه أن نغير من وضع الهرم المقلوب فنجعل
المعرفة هرما قائما على أساس الطبيعيات وهى أساس ثابت ، قائم
على البرهان والتجربة ، فيه تكون القضايا عامة غير قابلة

للاستثناء ، وفيه يكون الواقع معروفا لا يحتمل الشك ولا يتسع
للآراء المتضاربة ، وفيه يكون الواقع والمعقول شيئا واحدا
لا يقبل الخلاف ثم نقيم على هذا الأساس علوم الحياة على نسقه
وأسلوبه ، فيتحدد بذلك المذهب الحق من بين المذاهب الحيوية
ثم نقيم على هذا كله علوم الانسانيات متسقة في نظامها العام
مع علوم الحياة فيتبين لنا المذهب الحق من بين المذاهب الانسانية
المتعددة » •

والآن وقد اتضح لنا منهج الكتاب وغايته ، علينا أن نتبع
فكر المؤلف في تسلسله حتى يتسنى لنا فهم هذا المنهج وما يترتب
عليه • وكامل حسين يبدأ بالحديث عن المعرفة فيقول « في الكون
نظام ، وفي العقل نظام ، والمعرفة هي مطابقة هذين النظامين •
والنظامان من معدن واحد ، والمطابقة بينهما ممكنة لما فيهما من
تشابه • ولو لم يكونا متشابهين لاستحالت المعرفة • • وتشابه
النظامين الكوني والعقلي هو جوهر امكان المعرفة » •

والعقل هو جهاز التفكير في الانسان • وهو يتميز بثلاث
خصائص غالية فيه هي ، انه لا يطبق القوضى ، ولا يحتمل
الفراغ ، ولا غنى له عن تجسيم المعنويات • وخوفه من القوضى
دفعه الى تناول كل ما يعرض له من أمور بالتنظيم والترتيب •

بل أن المؤلف يذهب الى أن هذه القوة التنظيمية « غريزية »
في العقل • يدل على ذلك ما نراه من النظام في اللغة • واللغة
عمل عقلي محض وهي تنشأ منظمة ، وقواعدها منطقية •

والعقل لا يحتمل الفراغ ، وليس معنى هذا انه لا يعترف
بجهله أشياء بعينها، وانما يعنى ذلك أن العقل يحاول أبدا أن
يكون علمه كافيا لتفسير كل ما غمض عليه • والاتزان العقلي
لا يتم للانسان الا اذا كان علمه مهما قل يملأ فراغ عقله كله •
لهذا كان حتما أن تكون المذاهب الدينية والفلسفية كاملة تحاول
كلها التفسير التام لكل ما يعرض للانسان •

وتجسيم المعنويات يدفعه الى تمثيل المعنويات تمثيلا يجعلها
في متناول حواسنا العادية ، ومن هنا كانت رغبة الناس في تمثيل
الايمان بالعبادات ومن هنا نشأت رغبته في تصوير الجمال ،
والتغنى بالحب ، واختراع الموسيقى كل ذلك لابرار معنويات
كامنة في النفس في صور حسية •

« هذه الصفات الثلاث ثابتة في العقل ، وهي مصدر
قوته ، الا انه حفل بها كثيرا • • فحين تكون الحقائق التي لدى
العقل قليلة نراه يضطر الى تنظيم علمه وملء فراغه وتجسيم
معنوياته قسرا مسرفا في ذلك على نفسه وعلى الحق • وهو في ذلك
مسبق بقوة قاهرة تجعله لا يستقر حتى يجد نظاما يرتاح اليه ،

فان وجد النظام الحق كان خيرا ، وان لم يوجد فلا مانع من
اختراع نظم مصنعة لا تقوم على أساس من الواقع ، ذلك أصل
الخرافات » •

مذاهب التفكير :

ومذاهب التفكير الكبرى نوعان ، الأول خرافى علمى ،
والثانى فلسفى دينى • الأول موضوعه ربط الأشياء بعضها
ببعض ، وكشف العلاقات بين الأسباب والمسببات ، حتى اذا
بلغت العلاقات حد يجعلها ذات نتائج مطردة أصبحت الخرافات
علما ، والثانى هو « المذهب الفلسفى الدينى ، وهو مذهب غائى
شامل ، يبدأ بأواخر الأمور ، ويفسرها تفسيراً كاملاً ، وهو
مذهب يضيق بالتفاصيل ، ويزعجه البحث الدقيق فى ما هو واقع
فعلاً ، وهو يعد قضاياها حقاً مطلقاً • فاذا وافقها الواقع فالواقع
صواب وان خالفها فالواقع خطأ الى أن يصوبه التأويل ومن
أثار هذا المذهب الدين والاخلاق والفلسفة والاجتماع » •

ولا بد فى كل مذهب من هذه المذاهب من اثبات الحقيقة
بنوع من أنواع البراهين • والحقيقة هى وضع كل ظاهرة مادية
كانت أو معنوية موضعها من النظام الكونى • واذا كان العقل
هو الوسيلة التى توضع بها الظواهر موضعها فلا بد له من طريقة
أو برهان لاثبات الحقيقة •

أما البرهان في المذهب الخرافي العلمي فهو يقوم على
الاطراد وعلى أن العلاقة بين موضوعات البحث فيه يمكن
اخضاعها لنظام رياضي ثابت حتى اذا أصبحت العلاقات منظمة
ثابتة خاضعة للتجربة والحساب كان ذلك آخر الخرافات
وأول العلم •

أما التفكير الديني فلم يهتد الإنسان بعد الى برهان فيه
مفطوع بصحته ، ومقياس الحق فيه الالهام والشعور النفسي بأن
ما يعتقده المرء هو الصواب • أما الفلاسفة فالبرهان عندهم
هو مطابقة أمر ما للمنطق • والمذاهب الفلسفية الكاملة كثيرة ،
كل منها منطقي لا تناقض فيه ، ومع ذلك فانها لا يمكن أن تكون
كلها حقيقة •

من هذا يصل المؤلف الى انه أصبح لزاما علينا أن نجد
المعايير التي تمحص بها الحقيقة في أمور العقيدة والضمير
والاخلاق والجمال والحب ، وخاصة بعد أن ثبت ان البراهين
النفسية والمنطقية لا تكفي لتحديد ما هو واقع فعلا •

النظام المقترح :

المعيار الذي يقاس به الحق في المعنويات هو اتساق النظام
المقترح مع النظم الكونية التي ثبت صوابها ثبوتا علميا والتي
عرف نظامها رياضيا • والأصل في ذلك أن الكون له نظام واحد

أوله الماديات وآخره - فيما يتعلق بالإنسان - المعنويات .
فاذا استقام لنا ان نجد هذا النظام الشامل الذى تتبين فيه
أوجه التقارب بين الماديات والمعنويات فان اتساق هذا النظام
يصبح معيار الحقيقة فى المعنويات .

وعقدة العقد فى المعرفة هى ايجاد الأساس المادى للأخلاق
والضمير ، فان بينهما فجوة لم يهتد أحد بعد الى عبورها ، ولا بد
من الكشف عن هذا الأساس قبل الحديث عن وحدة المعرفة .

« وانى أعتقد ان علمنا بالماديات والحياة بلغ الحد الذى
نستطيع معه أن نقيم هذا النظام الجديد للمعرفة .. ثم نختار من
بين المذاهب الفلسفية والدينية ما يتفق وهذا النظام . بهذا
وحده يتبين لنا وجه الحق فى ما ليس من طبيعته ان يثبت
بالبرهان العلمى » .

هدم الآراء القديمة :

بعد هذا ينطلق المؤلف فى جرأة وثبات لهدم بعض الآراء
القديمة التى يرى أنها تقف فى طريق مذهبه الجديد ، مثل العلة
الغائية والتفكير الثنائى وفهمنا للزمن ، وتصورنا للحقيقة
والسببية ، تمهيدا لاقامة النظام الجديد .

والعلة الغائية مذهب يقوم على تحديد غايات بعينها تراد لذاتها ، على ان هذه الغايات تؤدي الى تهيئة الأسباب التي تنتهي اليها • واذان الغاية نخلق الوسائل التي تؤدي اليها • « فرجال الدين يرون ان الله بقدرته يعمل على أن يكون العالم كله وسيلة لغايات بعينها هي عندهم تمجيده تعالى وعمل الخير • أما علماء الانسانية فقد افترضوا ان قوة النظم هي التي تعمل على تهيئة الأسباب لبلوغ غاية هي عندهم خير المجتمع من أخلاق وفضائل • وحسب العلماء ان قوة الحياة هي التي تعمل على بلوغ غايات هي عندهم بقاء الجنس ومواءمة التركيب الجسمي للبيئة • وحسب بعضهم ان الوظيفة غرض يعمل على أن يكون العضو مؤديا الى هذه الغاية كأنهم يرون ان الانسان وقف منتصبا على قدميه فتغير تركيب القدم ولا يرون أن القدم تغير أولا فوقف الانسان عليه ... وأكبر الملحدين من العلماء الذي يتحدث عن الطبيعة على أنها القوة المنظمة للكون والمؤمن الذي يرى ان الله هو المنظم له ، كلاهما يدين بمذهب العلة الغائية •

ومنشأ هذا المذهب هو تصور الانسان انه مركز الكون وان كل شيء خلق من أجله •

ولا بد من هدم هذا المذهب لأنه من ناحية المنطق خلط ومن ناحية الفلسفة عقيم ومن الناحية العلمية خطأ. وبالنسبة للمستقبل الفكرى عقبة تحول دون فهم الكون فهما عقليا كاملا •

ليس للعالم غايات خلقت القوانين من أجل تحقيقها • •
انما يقوم نظام الكون على سلسلة من القوانين أولها بسيط
ثم تزداد تعقيدا حتى تبلغ التعقيد الذي نراه في الانسان وسر
النظام الذي نراه فيه وسر التوافق بين الأسباب والغايات يرجع
الى ان هذه القوانين تؤدي بطبيعتها الى هذه الغايات •

وبعد أن يفرغ الدكتور كامل حسين من هدم هذا المذهب
الخطير يتجه الى مذهب آخر لا يقل خطورة بالنسبة للتفكير
الانساني والتفكير الديني بالذات هو مذهب التفكير الثنائي
الذي يؤدي الى المقابلة بين الخير والشر والروح والجسد وبين
الصواب والخطأ • فالفلاسفة يتحدثون عن الخطأ والصواب
على انهما تقيضان ، ورجال الدين يتحدثون الحديث نفسه عن
الخير والشر • والعقل يرتاح لهذا التقسيم فلنا منه انه يلم
بكل شيء •

وأصل هذا التفكير ان الانسان جعل نفسه مركز الكون ثم
« وضع الأشياء عن يمينه أو يساره وأصبح يقيس الأمور بنفسه
ويرتبها ترتيبا هو محوره • فالخير هو ما يعود عليه بالخير والشر
هو ما يعود عليه بالشر • مثل ذلك مثل علم الفلك حين كان
علماءه يعتقدون ان الأرض مركز العالم » •

ولم يصبح الفلك علما الا حين تخلص من اعتبار الأرض.

مركز العالم • ولن يستقيم التفكير حتى نخلص من « اعتبار
الانسان مقياسا تقاس به الأمور وحتى نقلع عن تنظيم الأشياء
تنظيما يقوم على علاقتها بالانسان » •

والفكر الثنائي كما يقول المؤلف لا حقيقة له في العلوم
الطبيعية • « فالحرارة والبرودة – ومقياسهما الانسان – أصبحت
درجات مختلفة من سرعة حركة الجزيئات في الجسم وأصبحت
تقاس دون الرجوع الى ما يحسه الانسان ، تبدأ من ٢٧٣° تحت
الصفر وترتفع حتى تبلغ آلاف الدرجات • وليس لدرجة حرارة
الانسان أي مغزى علمي خاص يجعل التقسيم القائم عليها
ذا قيمة علمية » •

كذلك الأمر بالنسبة للألوان • ما هي حقيقة اللون • هل
الأحمر أحمر لأننا نراه كذلك ؟ وهل الحمرة توجد اذا لم توجد
العين التي تراها • « وقد ثبت أن اللون موجة ذات طول خاص
يمكن قياسه بغير العين » ، كذلك في الكيمياء « قسمت الأشياء
الى حمضية وقلوية ثم ثبت أن هذه الصفات ترجع الى تركيز
أيونات الأيدروجين وهو أمر متصل لا داعي لتقسيمه •

في الفلسفة والدين :

من هذا يتبين انه عندما نعرف حقيقة الأشياء وقوانينها نزول
بعد ذلك أكثر مظاهر التفكير الثنائي ، هذا واضح في العلوم ،

ولكن الأمر في الفلسفة والدين أكثر تعقيدا * وان تكن هناك دلائل على أن التفكير الثنائي فيهما لن يلبث أن يقضى عليه متى عرفت طبيعة الخطأ والصواب وطبيعة الخير والشر * « فالخير والشر متناقضان ما دام البحث متعلق بالإنسان ، ولكنهما من حيث انهما حقيقة كونية فلا يكونان الا درجات لشيء واحد سنعرفه عندما يتم علمنا بالنفس وقد نبلغ من ذلك حد مقياس الخير والشر على انهما درجات مختلفة لتأثير واحد على النفس البشرية » *

وبصرف النظر عما قد يحدثه الأمر من زلزلة في كثير من العقائد الفلسفية والدينية التي تقوم على هذه الثنائية ، فان القول بزوال التناقض بين الخير والشر أمر يصعب تصوره * ذلك في رأى لأن الإنسان حتى لو اسقطنا من حسابنا اعتباره مركز الكون أو مركز العالم كما يريد المؤلف فان نظريته هذه التي تقوم على التطور الطبيعي تضع الإنسان في قمة الكائنات الموجودة في الكون اذ يتميز عليها بالعقل والضمير *

وبالتالى فلا مفر من بقاءه موضع الاهتمام الأول والأهم بالنسبة لباقي الكائنات الحية * يترتب على هذا بقاء أساس التفرقة بين الخير والشر ، اللذين يعتبرهما المؤلف من « الغرائز البشرية » في كتابه « التحليل البيولوجي للتاريخ » *

وصعوبة التعريف المطلق لكلمتي الخير والشر على اعتبار
انهما حقائق كونية يأتى من الايمان بحقيقة أخرى وهى انه مهما
تقدمت العلوم وزادت معرفتنا بالنفس الانسانية ، فسوف نظل
أمام مشكلة أزلية وهى أن النفس البشرية ليست شيئاً واحداً
أو فرداً بعينه بل هى نفوس متعددة وشعوب متفرقة متناحرة ،
ومن ثم سيظل للخير معنى وللشر معنى آخر بالنسبة لكل فرد
أو لكل جماعة .

فاذا أمكن للعلوم الطبيعية أن تقضى على ثنائية التفكير
فيما يختص بحقيقة الأشياء المتعلقة بالحواس كالحرارة والبرودة
ودرجات اللون لأنه اكتشفت أجهزة لقياس هذه الأشياء بمعزل
عن الانسان ، فانه يستحيل اكتشاف أجهزة لقياس الخير والشر
خارج الانسان فرداً أو جماعة . ولا يمكن ذلك الا فى حالة واحدة
مستبعدة وهى حين يتحد البشر جميعاً فى وحدة واحدة بعد أن
تزول من بينهم أسباب الخصومة والحرب وتسقط أمامهم كل
الحواجز الطبقية وتنمحي الاختلافات الدينية والقومية . حينئذ
تتشابه مشاعرهم الى حد التطابق ويصبح بمقدور الجميع أن
ينظروا للأمور بمنظار واحد . فيسهل عليهم قياس الخير والشر
من وجهة نظر علمية محايدة فيبدوان درجات لشيء واحد
أو يبدو كل منهما محددًا تحديداً قاطعاً كميكروب السل

أو التيفود مثلا • وحينئذ تنهار نظرية المؤلف أو تدفع بالفكر الى نظرية جديدة •

وكما حاول الدكتور كامل حسين تجريد الخير والشر فهو يفعل الشيء نفسه مع الزمن • وهو يقر بأن الانسان عجز عن « ادراك حقيقة الزمن وطبيعته ادراكا مباشرا جعل للمعرفة حدا لن تستطيع أن تتعداه •• والزمن حقيقة لا ريب فيها ولكنها أكثر الأمور غموضا على العقل • وهو يدرك بآثره في الأشياء • وهذا هو الزمن التاريخي • وهو يختلف عن الزمن الرياضي والزمن الكوني » •

والمؤلف يرى انه « من الخطأ أن تتصور الزمن على أنه من عوامل التطور ، ولعل التطور عملية تركيبية خاصة بما ركب في الكائنات الحية من صفات » • ومن الأخطاء المترتبة على ذلك تحديد عمر الكون تحديدا زمنيا « •• » ويكاد يكون من المؤكد ان الكون كله لا يخضع لقانون ما ، وليس للزمن أثر عليه • والحديث عن عمره خطأ عقلي واضح » •

وفكرة تجريد الزمن أو رؤيته كشيء مطلق مستقل عن الانسان والأحداث تسيطر على فكر المؤلف في كتاب « التحليل البيولوجي للتاريخ » وقد أدت الى نتائج لا يمكن قبولها أو التسليم بصحتها وقد تبين ذلك عند الكلام عن هذا الكتاب •

أما الآن فحسبنا أن نركز على موضوعنا • ولعله آن الأوان
لنسال :

ما هي الحقيقة ؟

لم يقدر الانسان عظم ما أقدم عليه حين بدأ بحثه عن الحقيقة،
ولم يدرك أن اختلاف الحقيقة في مذاهب التفكير المختلفة يشير
الشك فيها كلها •• مهما يكن من صوابها في بعض وجوهها •

فالحقيقة في التفكير الديني هي ما أنزل الله على عباده ،
وما هداهم اليه ، وهو فرض عظيم له من شموله وقوته وكماله
ما ينزع سلاح معارضيهِ •• ولذلك قبله الناس كافة في عهود من
التفكير كان فيها وحده موضع الثقة • ولكن هذا الكمال نفسه
خلق فيه هنات لم تلبث أن ظهرت لدى المفكرين • وقد حملت
هذه الهنات الكثيرين على الشك في الحقيقة كما يصورها
الدين فأفكروها كلها على ما يكون فيها من صواب • وأكبر
هذه الهنات ان التفكير الديني لم يستطع تعيين صفات الذات
العلية العليمة القديرة الا بما هو انساني ، وانه لا يعبا بتفاصيل
النظام الكوني ولم يفسرها • وانه لم يبين لم احتاج تمجيد الله
الى هذا التعقيد البالغ في الكون وكان يصح أن يتحقق بما هو
أبسط وأوضح • والحقيقة عند المؤمنين تنحصر في ارادة الله ثم

حددوا ارادته بما أراده سبحانه فعلا • هذا كله دفع الناس الى التماس الحقيقة في نظام آخر هو الفلسفة •

وحسب الفلاسفة أن الحقيقة شيء محدد يحجبها عنا نقص علمنا ، وضعف جهاز العقل الذي نبحث به عنها ، وخيل اليهم اننا اذا زاد علمنا وتحسن جهاز التفكير عندنا فاننا نبلغ الحقيقة العليا التي اذا بلغناها تكشفت لنا أسرار الكون فنقرأها عند ذلك كأنها كتاب مفتوح • وفي رأى كامل حسين ان هذا أثر من آثار التفكير الذي يبدأ بأواخر الأمور والمعقد منها ، ولم يخلص التفكير الفلسفى من هذا العيب حتى بعد أن بدأت نظرية التحليل الديكارتى • فهي أيضا تبدأ بالمعقدات وتخرج منها الى ما هو أبسط وهو خطأ أصلى فى هذه المذاهب أدى الى زيادة فى غموض الحقيقة وبعدها عنها •

والواقع انه ليست هناك حقيقة بهذا المعنى • فالتفكير الفلسفى جعل الانسانيات مفتاح الحقيقة وهى لا تصلح لذلك ، وجعل الانسانيات أصلا يبنى عليه نظام الكون • وهو خطأ ولا بد لنا أن نضع الانسان موضعه الطبيعى من المخلوقات اذا أردنا أن نستقيم لنا فهم الحقيقة على النحو الحديث • الحقيقة ليست غاية محددة وانما هى معرفة علاقة شيء بآخر ، وعلاقتها بغيرهما من الأشياء • على أن تكون هذه العلاقات صالحة لتفسير كل ما هو مشابه لما هى بصدد • وقد يكون

هذا الفهم للحقيقة متواضعا ولكنه وحده يؤدي الى الالمام
بالصورة الكاملة للقوانين الكونية .

النظام الجديد :

وعلى هذا المعنى المحدد للحقيقة يتقدم الدكتور كامل حسين
لإقامة بناء المعرفة من جديد . وهو يقدم لهذه النظرية قائلاً
« يقوم البناء الذي اقترحه للمعرفة على نظرية تفاضل القوانين
(هيرارشية القوانين) وهي نظرية لم تفرض فرضاً لتفسير
ما نعلم من حقائق . وإنما هي نظرية مستمدة من القوانين
الطبيعية التي ثبت صدقها . والتي دليل صوابها مطابقتها للواقع،
وبرهان ثبوتها امكان حساب نتائجها رياضياً والتي لا استثناء
فيها » .

تفاضل القوانين :

هذه النظرية تقوم على عدة قواعد :

القاعدة الأولى : الأشياء وقوانينها شيء واحد ، لا وجود
لأحدهما بدون الآخر . الأشياء هي تجسيم
للقوانين . والقوانين هي التي توجد
الأشياء .

القاعدة الثانية : اذا كان قانونان لا يعمل أحدهما الا فيما
سبق أن عمل فيه لآخر كان أولهما أعلى من

الثاني • القوانين الأعلى أكثر تعقيدا من الأدنى •

القاعدة الثالثة : القانون الأعلى لا يتعدى عمله الأشياء التي هو مهياً لها • ولا أثر له في تغيير عمل القانون الأدنى •

القاعدة الرابعة : يعمل القانون الأعلى في « تاريخ حياة » ما هو أدنى منه دون أن يغير من قوانين هذا الذي هو أدنى • وهذا الأثر الذي يحدثه القانون الأعلى في حياة ما هو أدنى هو القضاء والقدر •

القاعدة الخامسة : يستطيع الشيء الأدنى أن يعرف وجود ما هو أعلى ، ولكنه لا يعرف من صفاته وخواصه الا ما يتعلق بقانونه الأدنى ، ومن المستحيل عليه أن يعرف كنه ما هو أعلى منه من القوانين والأشياء •

القاعدة السادسة : في كل طبقة من القوانين وبين الطبقات المختلفة تدرج يجعلها منظمة تنظيماً تكون فيه الأشياء والقوانين الدنيا أعم وأبسط

وأثبت من العليا التي تزداد في رقيها:
تخصيصا وتعقيدا وقلقا •

القاعدة السابعة : كل شيء وقانونه ينظر الى ما هو أعلى منه.
على انه اله قاهر لا يسأل عما يفعل ؛
ولا تفهم حكمته التي لا يمكن استنتاجها؛
طبيعيا من قوانين هذا الذي هو أدنى •

بعد ذلك يلخص لنا المؤلف النظام العام القائم على نظرية
« هيرارشية » القوانين على النحو التالي :

١ - في الأصل (وهو تعبير تركيبى يختلف تماما عن قولنا
« في الأول ، فهذا تعبير زمنى ») كان هناك شيء واحد
متناه في الصغر له خاصية واحدة هي القدرة على الاتحاد
مع اشباهه على نسب مختلفة فكان البروتون والالكترون.
ولم يثبت هذا بعد • ولكن ما أثبتته نظام الذرة يجعل
هذا الفرض مقبولا • اذ هو امتداد ذلك النظام الى ما هو
أدنى من عناصر الذرة المعروفة اليوم • وسيثبت ذلك
حين نستطيع تفجير البروتون والالكترون الى عناصرهما •
ولعل الفوتون هو هذا الشيء الوحيد الذي كان في
الأصل • ولعل أول قانون خضع له هو قانون المغناطيسية
الكهرية •

٢ - استمرت قوة الاتحاد هذه مع الأسباب وغير الأسباب بين الإلكترونات والبروتونات فكانت الذرة التي هي نتيجة القوانين الذرية وهي سبب وجود القوانين الكيميائية *

٣ - استمرت قوة الاتحاد هذه مع الأسباب وغير الأسباب بين الذرات فكان الجزئ الذي هو نتيجة القوانين الكيميائية وسبب وجود القوانين الفيزيائية *

كل اتحاد تم في طبقة من هذه الطبقات كان نتيجة لقوانين هو دليلها ومجسمها ويخرج من هذا الاتحاد شيء جديد يخلق طبقة جديدة من القوانين التي لم يكن لها وجود من قبل *

٤ - من هذا يتبين ان القوانين المغناطيسية الكهربائية أدنى من قوانين الذرة ، وهذه أدنى من قوانين الكيمياء وهذه أدنى من قوانين الفيزياء * والسبب في اعتبارها أدنى ان الأعلى من بينها لا يعمل الا فيما سبق ان عمل فيه الأدنى * الفيزياء لا تعمل الا ما سبق ان عملت فيه الكيمياء *

٥ - ثم كانت فجوة في الطبيعة * وهذه الفجوات طبيعية اذ لم يكن على الطبيعة أن توجد كل الاحتمالات الرياضية

للاتحادات المختلفة فى كل طبقة • وهذه الفجوات نظامها
هو نظام الفجوات المعروفة معرفة ثابتة فى الموجات
الآثرية •

٦ - فى كل طبقة من القوانين والأشياء المادية كان ازدياد
التعقيد سببا فى قلق تركيبى • لهذا كان الاشعاع فى
الذرات المعقدة القلقة •

٧ - اختصت ذرة الكربون - لسبب خاص فى تركيبها -
بقدرتها على الاتحاد مع غيرها من الذرات اتحادا واسع
المدى الى أقصى جد فكانت الجزئيات الضخمة المعقدة
وهذه الجزئيات تصبح لتعقيدها قلقة التركيب مثلها
الذرات القلقة ذات الاشعاع •

ولكن هذا القلق منظم وله صفات خاصة • فإذا
اتحدت هذه الجزئيات الضخمة القلقة مع غيرها « خرج »
من هذا الاتحاد مركب له صفات جديدة وبهذا يصبح حيا •

٨ - المركبات التى تتكون منها المادة الحية نتيجة طبيعية
للتعقيد البالغ فى تكوين جزئياتها • ثم اتحدت هذه
المركبات القلقة قلقا حيويا فكانت الخلية التى اكتسبت
بذلك صفات الحياة نتيجة لتعقيدها وقلقها وهذه الصفات

هى المقاومة والمرونة والتكيف وهى سر تأثير الخلية
بما يحيط بها دون أن تعقد بذلك شخصيتها •

٩ - اتحدت الخلايا فكانت الكائنات وظلت هذه محتفظة
بصفات الحيوية •

١٠ - اتحاد الخلايا نوعان تكاثرى واستكمالى • فالتكاثرى
أغلب فى حياة النبات وهو الذى أدى الى وجودها • أما فى
الحيوان فالتكاثر محدد بالاستكمال • وهذا الاستكمال
معناه وقوف التكاثر عند حد تكون الأعضاء •

١١ - ثم كانت الفجوة الثانية بين الحيوان والانسان كما كانت
الفجوة الأولى بين المادة والحياة •

١٢ - التعقيد البالغ حد القلق فى الجزىء خلق فيه صفات
جعلته يقبل قانونا أعلى هو التكيف والمرونة فكانت
الحياة ، كذلك التعقيد فى الحيوان (أو فى عضو خاص
من أعضائه هو المخ) خلق فيه صفات جعلته يقبل قانونا
أعلى هو المعنويات فكان الانسان • فالمعنويات هى النتيجة
الطبيعية لتعقد العضو العصبى فى الانسان وهو المخ
فكانت الذاكرة والعقل •

١٣ - المعنويات على ثلاثة أنواع :

(أ) العلم : وهذا يتكفل به المخ من حيث هو جهاز
الكثرونى ضخيم قادر على التذكر والتمييز •

(ب) الجمال : وهو نظام فى الأشياء يجعل أثرها موافقا
لنظام حواس الانسان فتجواب معه تجاوبا يجلب
لنا السرور •

(ج) الفضائل : وهى نظام فى الأشياء يجعلها تتجواب
ونظام العقل • فالصدق نظام والكذب فوضى •
والفضائل جمال معنوى كما كان الجمال حسيا •

١٤ - من صفات الحياة الملازمة لها « الكبح » وهو قدرة
الكائن على الامتناع عن عمل ما وان كان عليه قادرا •
والكبح لا يعمل الا فيما سبقه ارادة العمل والقدرة عليه
ثم يكون الكبح • هذا القانون هو الضمير وهو أعلى
قوانين الانسان لأنه لا يعمل الا فيما عملت فيه الارادة
من قبل •

١٥ - الله بالنسبة للانسان كالانسان بالنسبة للنحلة مثلا حين
يهيئ لها الانسان الراحة والغذاء ويعفيها من جهد صنع
الشمع • كل ذلك عن علم وقدرة وفهم وارادة • فهى تعلم
بوجود شىء عال قادرا مريدا دون أن تستطيع تصور
الانسان • كذلك الانسان يدرك وجود ذات عليه عالمة

قادرة مريدة تعمل في حياته • ولكنه لا يستطيع أن
يتصورها على حقيقتها •

شرح القوانين :

هذا هو الهيكل العام لنظرية تفاضل القوانين كما طرحها
المؤلف • وحتى يتسنى فهم العلاقة الصحيحة بين هذه القوانين
وكيف يمكنها أن تؤدي الى وحدة المعرفة الانسانية ، فاني سأتابع
المؤلف في رحلته العظيمة المضنية في الشرح والتأكيد • وكل أملى
أن أوفق في التركيز والايجاز دون اخلال أو تشويه لأفكار هذا
العالم الجليل •

القوانين والأشياء امر واحد :

اعتقد المفكرون من قديم الزمن أن القوانين والأشياء أمران
منفصلان • الأشياء توجد أولا ، ثم تلحق بها صفات وخواص
تحددها القوانين التي تعمل فيها • وأدى هذا النوع من التفكير
بالطبيين والكيميائيين الى الأخذ بنظرية الجوهر الواحد التي
تلحق به الصفات المختلفة فتكون منها المواد العديدة • وقال
نيوتن أن المادة تتغير ولا تنعدم •

وانتقل هذا المذهب بشكل أوضح الى علوم الحياة ،
واتفق الكل على أن الحياة قانون مستقل يلحق بالمادة فتصبح
كائنا حيا • ومن ثم جعلوا الكائن الحي جسما وروحا • فإذا

خرجت الروح من الجسم فقد الحياة وأصبح ميتا • وبهذا أخذ الناس يدرسون قوانين الحياة منفصلة عن قوانين الطبيعيات •

وفي الانسانيات كانت التفرقة بين الجزء النفسى والجزء الحيوانى فى الانسان • وقسم الناس الصفات الانسانية الى معنوية ومادية وحسبوهما منفصلين • ولعل هذا هو أساس الثنائية فى التفكير • وهذا فكر لا بد من العدول عنه •

فالماء يحمل السفينة • فاذا فرضنا أن قوانين الكيمياء التى تربط الذرات الثلاث التى يتكون منها الماء توقفت فأن الماء يندم بوصف كونه ماء ولا تطفو السفينة •

والقول بأن المادة لا تنعدم قول فيزيائى • والتحليل الكيميائى والانتجار الذرى يحولان المادة كما نعرفها الى أشياء لا علاقة لها بالمادة • فهو فى الواقع انعدام لها • ولو وقفت جميع القوانين الكونية لأصبح الكون كله مجموعة هائلة من عنصره الأول لا تمت لما نعرفه من الكون بصلة • وهذا يثبت أن الأشياء وقوانينها أمر واحد لا وجود لأحدهما بدون الآخر •

القوانين العليا والقوانين الدنيا :

القوانين المختلفة تختلف فى قوتها وميدان عملها • فاذا تصورنا

القوانين والأشياء الكونية على هيئة هرم لا تقوم طبقة فيه
الا على أساس من طبقة أخرى كان لنا أن ننظر الى كل قانون
لا يقوم الا على عمل قانون آخر على أن الأول أعلى والثاني
أدنى •

فالقوانين المادية ثلاث طبقات • الذرية والكيميائية ثم
الفيزيائية • فالجاذبية مثلا لا تستطيع أن تعمل أو توجد الا بعد
أن يتم تكون الجزيئات كيميائيا من ذرات تكونت ذريا • على
هذا تكون الجاذبية - وهي مثل على القوانين الفيزيائية - أعلى
من القوانين الكيميائية كما تكون هذه أعلى من القانون الذري •
هذه القاعدة تحدد بالضبط تحديدا علميا معنى القول بالأعلى
والأدنى عند الحديث عن القوانين والأشياء •

فإذا انتقلنا الى الكائنات الحية وقوانين الحياة وجدنا هذا
التحديد مفيدا في تحديد ما هو أعلى وما هو أدنى في أمور
البيولوجيا • فالمادة الحية نفسها أعلى من القوانين المادية
لأنها لا توجد ولا تعمل الا بعد تمام عمل هذه القوانين •
والكائن المركب من خلايا عدة أرقى من الكائن ذي الخلية
الواحدة لأن قوانين التخصص العضوي لا توجد الا بعد ازدياد
التعقيد الناشئ عن تعدد الخلايا • فإذا وجدت الكائنات ذات
الخلايا الكثيرة بدأ تكون النبات والحيوان • والحيوان يعتبر
أعلى من النبات لأن كل قوانين النبات من نمو وتوالد وتكيف

موجودة في الحيوان الذي يزيد عليها في الحركة وتخصص
الأعضاء مثلا •

حتى اذا درسنا الانسان وجدنا قواينه لم تكن لتعمل
أو توجد الا بعد ان يتم عمل القانون الحيواني ويبلغ غاية
التعقيد • فلم يكن لمثل النملة ان يكون لها من العقل والضمير
ما يجعلها انسانا لانها لم تبلغ من تمام الحيوانية ما يتيح لها ان
تتمثل فيها الانسانيات • وهذا هو التفسير العلمي لقولنا ان
الانسان أعلى الحيوانات •

واختص الانسان بقدرته على تقبل المعنويات • والعقل هو
جهاز هذا التقبل لما انه جهاز التفكير والمعرفة • لكنه أيضا
عضو نشأ عن الرفي الطبيعي للتربيب الجسمي • وهو يقوم
بالوظائف الانسانية الخالصة • فيجسم المعنويات في صور حسية
وهي القدرة الفنية ، ويتأثر بما حوله من ماديات فيحيلها الى
معنويات في نفسه وهذه هي العاطفة • والصفة الغالبة على هذه
هي النظام • فالنظام هو اصل تقديرنا للجمال والفضائل •
فالجمال يوجد حين يتجاوب نظام شيء ما مع نظام العضو الذي
يدركه فتكون بينها (هارمونية) او انسجام يحدث اللذة •

وقانون الضمير تجسيم أعلى لقانون شائع في الكائنات
الحية كلها هو قانون التكبح • والسبب في اعتبارنا هذا القانون

أعلى القوانين انه لا يعمل الا بعد ان تعمل الارادة والقوة
والعلم •

سقف المعرفة :

يستطيع الحيوان أن يدرك كل ما هو أدنى منه • ولكن
فهمه للانسان ينحصر في علمه بوجوده وفي علمه بما في الانسان
من قوانين حيوانية • فهو لا يفهم دوافع الانسان التي تدفعه الى
تدليله أو تعذيبه ، والى تقديسه أو ذبحه • فهذه المعنويات
الانسانية لا يفهمها الحيوان •

وموقف الانسان من القوانين التي هي أعلى منه لا يختلف
عن ذلك في شيء • فهو يعلم بوجود هذه القوى العليا • ولكنه
لن يفهم منها الا كل ما هو انساني وهذا هو بالضبط ما فعله
الانسان في معرفته بالله • فهو على يقين من وجوده ، ولكن فهمه
لصفاته تعالى لا يمكن أن يكون الا محدودا بما هو انساني •
وما فوق الانسان يعد بالنسبة له ميتافزيقا • أى ما وراء
الانسان •

لكل معرفة اذن سقف لا تستطيع أن تعلو عليه • وهذا
السقف تحدده القوانين التي يخضع لها صاحب المعرفة •

والمعرفة نوعان : معرفة بوجود الأشياء العليا وهو مستطاع

لكل ما هو أدنى ومعرفة حقيقة الأشياء العليا وهو مستحيل على ما هو أدنى •

وسر ذلك ان كل ما هو أعلى يخضع للقوانين الدنيا كلها وبذلك يمكنه معرفتها • أما الشيء الأدنى فلا يدرك من الشيء الأعلى الا ما تؤهله له قوانينه هو • وبذلك يدرك وجود الأعلى ويدرك صفاته الى حد محدود وهذا بالنسبة له يعد سقف المعرفة •

القضاء والقدر :

هناك أثر هام تحدثه القوانين العليا في القوانين الدنيا دون أن تغيرها • ذلك ان الأعلى يمكنه أن يؤثر في تاريخ حياة الأدنى • فالحيوان الذي يذبح قربانا لله لا يدري شيئا عن القانون الانساني الذي دفع الانسان الى هذا الفعل • وهو أمر لا يمكن تفسيره عند الحيوان بأي قانون طبيعي • فهو بالنسبة للحيوان قضاء وقدر •

وتطبيق ذلك على الانسان يكون بفرض وجود قوانين وأشياء أعلى منه تحدد تاريخ حياته دون أن تغير من قوانينه • وهذه هي الربوبية • وهي تتفق مع رأى أهل الدين والتنزيل • « أليس هذا التقاء غير متوقع للعلم والدين في فهم الربوبية وفي هذا التلاقي برهان على صدق الدين وصدق العلم » •

النظام العام للكون والمعرفة

« اذا كان للمعرفة حق في الوجود فذلك الحق لا يقوم الا على مطابقة نظامها للنظام الكوني . واذا كان النظامان متطابقين فان ما نعلمه عن الكون يقينا يمهد لنا الطريق الى الفهم الحق للمعرفة » .

وهو يقرر أيضا ان لهذا النظام غاية « ان النظام الهرمي العالي والنظم الصغيرة التي تمثل قطعا منه داخل النظام الكوني لها غاية يحددها النظام وليست هي التي تحدده » . وهذا يختلف مع العلة الغائية في الفكر التي تجعل الغاية هي التي تحدد النظام .

على ان صعوبة هذا النظام تكمن في الفجوات التي نراها فيه . والفجوات تكون في علمنا بسا هو موجود . وهذا يمكن تلافيه عاجلا أو آجلا . وتكون في الكون نفسه . فليس على المخلوقات أن تشمل جميع الاحتمالات التي يستطيعها هذا النظام .

« وقد ظهرت هذه الفجوات بشكل واضح جدا في الموجات الأثرية . هذه الموجات لها سرعة ثابتة ونسبة ثابتة بين طولها وذبذبتها . واختلفت فيما عدا ذلك . ولم نجد أطوالها كلها في

الطبيعة • وكثير منها لم يظهر الا على يد الانسان مثل أشعة روتجن والموجات اللاسلكية • لكن ما لم يخلق في الطبيعة لا يختلف في نظامه عما خلق » •

كذلك الفجوات الموجودة في النظام الحيوى والانسانى بعضها طبيعى ، اذ لم تخلق كل الكائنات التى يحتملها النظام الحيوى • ومع ذلك فان هذه الفجوات لا تحجب النظام العام للحياة •

والفجوات الكبرى التى تقوم بين الأجزاء الثلاثة للمعرفة وهى المادة والحياة والانسان من أصعب الأمور فهما ولكنها ضاقت الى الحد الذى نستطيع معه ان نتقل من نظام الى نظام دون مشقة كبيرة على العقل •

ومما يزيد ثقة الباحث في بلوغ هذه الغاية ان النظام التصاعدي للمعرفة والكون يقوم حسب قوله على فرضين :
الفرض الأول أن أصول الكون بسيطة جدا وأنها ازدادت تعقيدا حتى بلغت الانسان •

والفرض الثانى أن الطبقة الأولى من التكوين العالمى وهى قوانين المادة تثبت هذين الفرضين ثبوتا يكاد يكون يقينا •
ومن ثم يبدأ في بحث أمر الفجوات باعتباره أصل من أصول البحث في وحدة المعرفة • وبالنسبة لنا يعتبر فهمه أمرا ضروريا

لقبول هذه النظرية والثقة في نتائجها • وهذا ما يزيد من حرصى
على ايراد التفاصيل أحيانا حتى لا أبتسر الأفكار أو أترك في
هذا التحليل فجوات •

من الحيوان الى الانسان :

كانت الفجوة الأولى بين المادة والحياة • والفجوة الثانية
بين الحيوان والانسان • وكانت ذرة الكربون هى جسر العبور
فوق الفجوة الأولى ، اذ تميزت بصفة خاصة جعلتها تقبل التعقيد
الكيميائى البالغ الذى أوجد الجزيئات الضخمة القابلة للحياة •
أما الفجوة الثانية فسيتم عبورها عن طريق القوة الخاصة التى
تتمتع بها خلايا الجهاز العصبى • فهى أكثر الخلايا قابلية للتعقيد
والتضخم •

وهذا التضخم هو الذى جعل نشأة المخ الانسانى ممكنة •
وهو الفرق الأكبر بين الانسان والحيوان • وعلى هذا يكون
الانسان هو الحيوان الذى نما جهازه العصبى نموا خارقا • والمخ
هو عضو العقل كما تكون العين عضو البصر • على فرق بينهما
ان العلاقة بين فسيولوجيا العين والبصر واضحة على حين ان
المطابقة بين فسيولوجيا المخ ووظيفة العقل ليست واضحة تماما •

وقد ظل العلم الى عهد قريب على جهل تام بكنهه فسيولوجيا
المخ وخاصة المادة السنجابية فيه • وقد أجريت عمليات قطعت

فيها الصلات التشريحية بين المادة والجسم فلم يفقد الانسان ذاكرته أو علمه • وان كانت شخصيته تتغير على نحو ما ، وهذه التجارب تثبت ان فسيولوجيا المخ لم تكن فيزيائية ولا كيميائية ولا تشريحية • ولم يستطع أحد أن يتبين طبيعة هذه الفسيولوجيا حتى وقت قريب جدا عندما كشفت الخواص الالكترونية • وهذه الخواص الالكترونية تمهد السبيل الآن لفهم فسيولوجيا المخ وعلاقتها بسيكولوجية العقل •

ويتحفظ الدكتور كامل حسين على هذا الرأي قائلا
« لم يثبت ثبوتا قاطعا ان عمل المخ الكتروني صريح • لكن فسيولوجيا المخ من غير شك ان لم تكن الكترونية فعلا فهي قريبة جدا منها » •

الالهام والذكاء :

والجهاز العصبي عند الحيوان هو أصل الغريزة فيه • فالفرخ حين يخرج من البيضة يبحث عن غذائه فيحفر الأرض بقدمه ويختار ما يصلح له غذاء • وتفسير هذا هو ان تركيب الاتصالات العصبية يسمح لهذه العملية ان تتم بهذه الطريقة • فعلم الفرخ هنا هو علم عن طريق تشريحي لايزيد شيئا عن علم خلية المعدة بالهضم •

« وهذا العلم الناشئ عن التركيب الخلقى للجهاز العصبي

البسيط هو الالهام • أما الجهاز العصبي الذي يكون أكثر تعقيدا فان قدرته تكون أكبر • فالجهاز العصبي البسيط عند الحيوان يؤدي الى الالهام ، كما يؤدي الجهاز العصبي المعقد عند الانسان الى الذكاء • الالهام يقوم على أساس تشريحي خلقى • وهو من نوع الانعكاس العصبي • وهو وان يكن انعكاسا معقدا الا انه أبسط من أن يجعل للحيوان مرونة أو استعداد لكسب الخبرة والمعرفة •

ولا بد لاختزان التجربة من مسالك الكترونية عديدة كالتي نراها في المخ الانساني • وهو بهذه المسالك والتعقيد والتضخم يكتسب قدرة تختلف تماما عن الالهام وعما يستطيعه الجهاز العصبي البدائي في الحيوان •

هذا هو المعنى العلمي للالهام والذكاء • والالهام يكون في الانسان كما يكون في الحيوان وهو ما يستطيعه نتيجة التركيب الخلقي لجهازه العصبي والذكاء هو ما يستطيعه من جراء المسالك الالكترونية التي تتكون فضلا عن ذلك من جراء اختزانه الخبرة والعلم •

الانسان والكون :

وهنا يقرر الدكتور كامل حسين ان « الانسان ليس بدعا في الكائنات الحية • وليس بمعزل عن النظام الكوني بل هو مخلوق

يمكن « استنتاجه » من النظام الكونى دون كبير عناء • فإذا كان تعقد تركيب جزيئات الجماد جعله قابلا لاستقبال قوانين الحياة ، وكان الكائن الحى هو تجسيم هذه القوانين فان زيادة التعقيد فى تركيب الحيوان جعلته قابلا للقوانين الانسانية وأصبح الانسان هو تجسيم هذه القوانين • وقد كادت زيادة التعقيد هذه تكون مقصورة على نمو الجهاز العصبى - المخ وملحقاته من غدد وأعصاب - نموا بالغا وعلى ذلك يكون الفهم الحق للانسان متوقفا على فهمنا للمخ الانسانى فهما كاملا •

وهذه الدراسة يجب أن تشمل النقاط الآتية :

* المخ من حيث هو عضو له فسيولوجيا خاصة به ،
وعلاقة هذه الفسيولوجيا ببيكولوجية العقل •

* المخ من حيث هو جهاز متصل به الصفات الانسانية
الخالصة التى تقوم على الاحساس بالمعنويات كتقديرنا
للجمال وخضوعنا للقوانين الخلقية وأوامرها ونواهيها •
* وهل يمكن أن تكون شخصية الانسان من عمل هذا
العضو ؟

* وأخيرا المخ من حيث هو جهاز المعرفة •

وفى محاولة الاجابة على هذه المسائل نراه يرسى أولا هذه

القاعدة « ان كان تركيب المخ وخواصه تسمح له بذلك كله فلا داعى لفرض وجود قوى أخرى غامضة غريبة عن الخواص الانسانية العليا • فلا بد من فرض وجود قوى لا ندرى لها مكانا فى الجسم تجعل الانسان انسانا » •

لقد كشف العلم أخيرا عن القوة الالكترونية • وتبين لنا اننا نستطيع أن نؤثر فى المواد تأثيرا لا يغير من كيميائها ولا من فزيائها ولكنه مع ذلك يرتب الكتروناتها ترتيبا ثابتا يختزن به هذا التأثير ويستعاد عندما يراد ذلك • وأبسط مظاهر هذه القوة هو ما نراه فى شريط التسجيل • وهذه هى الذاكرة بعينها • ولكن الكاتب لا يجزم بأن عمل المخ الكترونى خالص من نوع شريط التسجيل لكنه يرى أن الذاكرة يمكن تفسيرها على أساس شبيه بالالكترونيات •

التفسير المادى للعواطف :

وإذا كان هذا التفسير يصلح لشرح الذاكرة وما يتعلق بها مثل العادات والخبرة والعلم بالماضى ، فهل يصلح لشرح عواطفنا التى تتمثل فى الحب والكراهة وأعجابنا بالجمال ؟

ويجيب الدكتور كامل حسين على النحو التالى :

« يحدث حولنا أمر تدركه حواسنا سمعا أو بصرا أو شمّا أو لمسا أو ذوقا ، فإذا كان هذا الأمر منظما ، وصادف نظامه

توافقا ونظام الأعضاء الخاصة به كالعين أو الأذن الداخلية
فان ذلك يحدث فيها حركة منظمة • وتنتقل هذه الحركة المنظمة
الى المخ فتجد فيه مسالك الكترونية سابقة خلقية أو مكتسبة •
فاذا تصادف ان توافق نظام هذه المؤثرات مع نظام هذه المسالك
التى فى المخ تم تسجيل هذا المؤثر على نحو منظم دون ان
يصطدم بعقبات أو مسالك مغلقة تضطرب عندها هذه الموجات •
عند ذلك يحدث لنا السرور • وتنشأ الرغبة فى تكرار هذا
الاحساس وتنشأ عندنا عاطفة الحب لهذا الذى كان السبب فى
الاهتزاز المنظم الذى يسير فى مسالك مهياة له • وهذا تفسير
محتمل للأصل المادى للحب والجمال • وليس أدل على أن
هذا النظام هو أصل سرورنا بالجمال من الموسيقى • فلو لم يكن
النعم منظما ولو انه وقع على أذن داخلية لم تنتظم أوتارها انتظاما
يوافق النعم ، ولو أن الموجات الصاعدة الى المخ لم تصادف
طريقا الكترونيا معبدا اما خلقيا أو بالمرانة والتلقين لما كان لنا
من ذلك السرور » • والى هذا يرجع الاختلاف بين الموسيقى
الشرقية والموسيقى الغربية التى يتذوقها الغرب •

التفكير والارادة :

هذا النظام الموجود فى المخ ليست وظيفته الوحيدة أن
يستقبل ويخزن • بل ان له حياة داخلية • وهو فرق كبير بين
أى جهاز الكترونى صناعى مهما عظم والمخ الانسانى ذلك ان

الحياة في الخلايا تخلق ثيارات تسلك المسالك التي مهدتها لها الطبيعة أولا والتي مهدتها لها العوامل الخارجية ثانيا . ثم هي تغير من هذه المسالك أيضا على قدر قوتها أو ضعفها وتوافقها أو اختلافها وعلى قدر توافقها مع المسالك الداخلية التي يحدثها وجود الحياة في خلايا المخ .

هذه التفاعلات الجديدة تكون التفكير والارادة ، وهي من عمل حياة الخلايا نفسها وهي تتأثر بالمسالك القديمة وتؤثر بدورها في هذه المسالك .

الأصل الطبيعي للفضائل :

« بين التفاعلات الناشئة عن روافد المخ ، وبين التفاعلات الناشئة عن المخ نفسه تنشأ تفاعلات في اتجاه مضاد يخرج من المخ الى أعضاء الحركة والعمل » وينشأ نتيجة لهذا « تيار جديد يحدد أعمال الانسان » وهذه الأعمال التي تكون منظمة في أصلها وتسلك مسالك موائمة دون اصطدام أو توقف أو قسر ويستريح اليها الانسان هي الفضائل .

فأكثر الفضائل تدل عليها أعمال مصدرها الفكرى منظم . فالصدق نظام والكذب فوضى ، والأمانة نظام والخيانة فوضى والشجاعة نظام والرعب فوضى . فاذا تعلق ارادة الشخص بعمل يبدأ في خلايا مخه منظما ويسير في مسالك منظمة ويؤدي الى عمل منظم . فهذا هو الخلق الجميل .

ابتكار الأعمال الفنية :

« هناك أعمال تصدر عن المخ تكون في أصلها منظمة ثم تسير في مسالك الكترونية منظمة سبق ان هياها في الأصل قبولنا للجمال • هذه الأعمال تكون بالطبع جميلة • وهذا طريق ابتكار الأعمال الفنية • في كلا الأمرين الصادرين عن المخ ، العمل الفنى والأخلاق الكريمة ، صفة غالبية هي النظام وذلك ما وجدناه في الجمال وما سنجده في المعرفة » •

قانون الكبح والضمير :

من الأخلاق الفاضلة نوع غير ايجابى ، وهو الامتناع عن عمل أشياء محبة الى الانسان تثير فيه السرور ، وأخرى قد يصيبه منها خير • ويكون هذا الامتناع عما نسميه جملة المحرمات دون ارغام أو ضغط أو جزاء واضح أو خوف مرتقب • بل يكون هذا الامتناع بدافع داخلى نفسى • • وهذا الامتناع أمر طبيعى • • يتفق « وقانون الكبح » في الكائنات الحية • وهى قوة ثبت وجودها ولها تأثير في فسيولوجيا الجسم وهى أوضح ما تكون في أعمال الجهاز العصبى » •

فالطريقة التى يتبعها الجسم في تنظيم وظائف أعضائه حين يتعلق هذا التنظيم بالجهاز العصبى ، هو أن يهيب للعضو نوعين من الأعصاب أحدهما يزيد في تنبيهه والآخر يهدىء من نشاطه •

فحركة القلب مثلا يسرعها نوع من الأعصاب فاذا أريد أن يهدأ فلا يكتفى في ذلك بالاقلال من عمل هذا العصب المنبه بل هناك عصب آخر عمله الأول التهدئة •

« هذا يسمح للقلب ان يتأثر بسهولة حسب الظروف ، وهو في الوقت نفسه يمنع أن يصل هذا التأثير الى حد الخطر • • وهذا يدل على ان القوتين الأصليتين في مادة الحياة وهما المرونة والمقاومة تتخذان مظاهر عديدة • وهذا مظهرهما في هذه الطبقة العليا من الحياة » •

ليست أعمال الانسان كلها من عمل الارادة وحدها ، اذا قويت قام الانسان بعمل ما توحى به واذا ضعفت امتنع ، بل أعمال الانسان كحركة القلب توازن بين الارادة الفاعلة والكبح . وهذا ضمان واضح لحسن مواجهة الظروف دون تعرض للخطر •

فقانون الكبح حين يتعلق بالمعنويات هو قانون الضمير • وهو قانون طبيعي متسق مع القوانين الطبيعية والحيوانية • وهو أرقى من جميع القوانين الانسانية الأخرى وهذا بالطبع على عكس ما تظن بعض المذاهب الفلسفية التي تعتبر الضمير عرفاً اصطلاح عليه الناس • والوجوديون يقولون « ان الناس أحرار ولو عملوا ما يحبون لاستقامت حياتهم على نحو خير مما هم فيه الآن من ارهاق بالخوف من المحرمات والخطيئة » • وهو مذهب علمي ليس له مسوغ عقلي •

الانسان والضمير :

و « نصيب الفرد من هذا القانون يختلف ، فحيث يكون نصيب الانسان فيه كبيرا يكون القديسون والأولياء والمتصوفون والمتزمتون والفضلاء • وحيث يكون نصيب الانسان منه قليلا يكون المتمتعون بالحياة والنفعيون وعباد اللذة والاباحيون » •

ثم ينتهى الدكتور كامل حسين من ذلك لاثبات أن التطور أدى الى تكوين عضو خاص بالانسان له صفات وقوى وقوانين خاصة به وان هذا العضو وهو المخ يؤدي الوظائف الآتية :

١ - الذكاء : وهو القدرة على استيعاب أكبر عدد من المؤثرات الخارجية واختزانها وإيجاد مسالك الكترونية تربطها بعضها ببعض •

٢ - العقل : وهو تأثر الحياة التلقائية داخل المخ وهى تتأثر بنظامه الداخلى وبما أدخل عليه الذكاء من تغيير • وفيه تتمثل الارادة والاخلاق الايجابية الكريمة والحكم الصادق والانتاج الفنى •

٣ - الضمير : وهو قوة الكبح وهو عمل طبيعى للمخ

تنشأ عنه قوة الامتناع عن المحرمات وعما
يعتبر خطيئة • وهو محور الاخلاق
الفاضلة •

ولعل هذا يكون أول الطريق لايجاد « الأصل الطبيعي »
للأخلاق وهو ما بحث عنه الفلاسفة عشرات القرون (١) •

وهذه الوظائف الثلاث التي يقوم بها المخ الانساني -
الذكاء والعقل والضمير • جعلت « الانسان أرقى الكائنات وهذا
الرقى ثابت علميا وليس مجرد زهو انساني دفعه اليه غروره
بنفسه • ويلتقى هذا الوضع العلمى مع ما قامت به الأديان
من انه خلق على هيئة الله • وبه تفسر ما أحس به الفلاسفة من
قديم حين قالوا ان القانون الخلقى يرفع الانسان فوق المخلوقات
كلها •

المعرفة ترف انساني

بقيت للمخ وظيفة ليست من صميم عمله هي وظيفة المعرفة •
وهي من الترف الذى صادف العقل فأوغل فيه واستعذب نتائج •
« فالخ وهو جماع القوانين الكونية كلها فى صورة مصغرة

(١) علق الدكتور حسين فوزى على هذا بقوله « هذه فروض ونظريات
الصحة فيها تعادل الخطأ • فلا دليل لدينا سوى منطق صاحب النظريات
والفروض » •

لا يعدو أن يكون عضوا نظامه أقرب الى نظام الكون • وكل حدث في الكون وكل قانون من قوانينه يجد في المخ تجاوبا معه • • وان التوافق والتجارب يجلبان لنا سرورا ولذة فان المعرفة ظلت في جميع العصور مصدر لذة وسرور قبل أن تكون مصدر فائدة » •

الله والانسان :

وهنا نأتى للفجوة الثالثة وهى « التى بين الانسان ومن فوقه فهى بعيدة الغور واسعة المدى الى حد يجعل عبورها علينا عسيرا جدا » •

والذين انكروها انكروا وجود ما وراءها ، أى انكروا وجود الله •

فهل الانسان هو القانون الأعلى للكون ؟

ويرد الدكتور كامل حسين « بأن هذا ليس من الحقيقة فى شىء • ذلك أن أعلى قانون فى الكون (أو أعلى شىء فيه) هو الذى لا يؤثر فيه قانون آخر أعلى منه • وهو الذى تاريخ حياته بيده لا يغيره شىء يعلو ارادته • فهل الانسان يمثل هذا القانون الأعلى ؟ وهل ارادته وحدها هى المتحكمة فى حياته ؟

ان الأمر يخالف ذلك تماما • وان الذى يؤيد الجزم بأن

هناك شيئاً أعلى من الإنسان هو أنه ليس المتحكم الوحيد في حياته • وإن حياته تتأثر بما لا يفهمه ولا يعرف له كنهها وبما هو أعلى منه مما سبق « سميناه القضاء والقدر » وهذا هو البرهان الوحيد على أن وراء الإنسان فجوة ، وأن وراء الفجوة قانوناً أعلى •

وقد يكون « هذا المذهب مفتاح نظرية الربوبية وموضعها العلمى من النظام الكونى والتفسير المنطقى للقضار والقدر » •

ولننظر فى رأى الإنسان فى الله لتبين هل يتفق هذا ورأى كل شىء فى ربه • « فكل ما يعرفه الإنسان عن الله هو وجوده وإن ييده القضاء والقدر • وكل محاولة يذلها لمعرفة كنهه سبحانه وتعالى محكوم عليها بالاختفاق حتماً • أما وجود الله فثابت من أن حياة الإنسان والناس مملوءة بآثار قوى لا نعلمها • وجود الله والقضاء والقدر أمران متلازمان ، فالقضاء والقدر هو « أثر وجود الله فى أعمال الإنسان » • وهو دليل على « وجود قوة عليا وقانون أرقى منا فهما بذلك » •

الاختيار والجبرية :

وفى ضوء هذا الشرح يمكن لنا أن نفهم موضوع الاختيار والجبرية • « فكل شىء فى دائرة حدود القوانين الخاصة به • ولا تعارض بين هذا وبين السببية • فكل شىء سبب • ولكن

الحياة المعقدة للكائنات الحية ، والتركيب المعقد جدا للانسان
يجعلان الأسباب الواحدة تؤدي الى عدة نتائج • ومادامت
النتائج تتفق وقوانين الكائن الحي فهو حر في اختيار أى من
هذه النتائج • وهو مجبر في كل ما عدا ذلك » •

الايمان بالله :

لم يعد وجود الله في حاجة الى دليل الا أن يقوم الدليل
على ان الانسان أعلى الكائنات وانه المتحكم وحده بإرادته في
تكييف حياته وهو ما لم يثبت بعد ، وتبعا لهذا فلا مناص من
الايمان بهذه الحقيقة الثابتة لأن الايمان كما يقول المؤلف هو
أكبر المعنويات الانسانية وأشملها وأعمقها •• وهو جماع النظام
العقلي كله • وهو مظهر هذا النظام • والذين يحرمون صفة
الايمان يدلون بذلك على أن في نظام عقلم اضطرابا خلقيا يصعب
علاجه •

حدود المعرفة الانسانية :

وفي ظل هذا النظام الطبيعي لتفاضل القوانين تصبح معرفة
الانسان بالله محدودة بنطاق علاقة القانون الأدنى بالقانون
الأعلى • « فنحن حين نؤمن بالله انما نقتنع بوجوده ، أما ما نقول
عن صفاته فهو من غير شك وصف بلغة الناس وهذه الصفات
محدودة بما هو في متناول العقل الانساني وأكثرها أشبه بالصفات

الانسانية منه بالصفات الالهية التي ستظل بالنسبة الينا أمرا مجهولا تماما . ونحن نصفه سبحانه وتعالى بتمام العلم والقدرة وهذا طبيعي ولو لم يكن كذلك لكان أقل من الانسان .

فاذا كانت الأديان الثلاثة تختلف نتيجة لاختلاف العقول ، مع أن جوهرها واحد وهو الايمان بقانون أعلى لا نعرف كنهه ولا صفاته ، واذا كان بعض هذا الخلاف يرجع الى الكتب المقدسة ، فهل يعنى هذا عند المؤلف ان هذه الكتب أو بعضها قد تأثر بفكر من كتبوه أو حملوه الينا ؟ والاجابة على هذا السؤال ليست بالأمر اليسير . لكن يحمد لهذا المنهج انه قد أوصلنا الى يقين فيما يختص بوجود الله ، وهو مصدر الايمان وجوهره . أما الخلاف على ما فى الأديان من تفاصيل فهذا أمر قائم منذ نزلت الأديان . وسوف يظل هناك دائما من يفكرون بعقلهم ويتحفظون ضد بعض الفروض الدينية وطقوسها .

ولكن هذا المنهج سوف يخدم بغير شك فى توضيح بعض المفاهيم الفلسفية والدينية الصحيحة ، ويساعد على تطهير المعتقدات مما علق بها من الخرافات التي لا يقبلها العقل .

وقد أعطى المؤلف أكثر من مثل على حسن تطبيق هذا المنهج فى كتابه الأخير « الذكر الحكيم » حيث اختار من الموضوعات ما يلائم مشاكل الانسان المعاصر وراح يفسرها بطريقة

مقنعة تقرب العقيدة من الانسان وتزيد من ايمانه وتحقق له
التطهر والسعادة النفسية •

كما ان ايمانه بنظرية التطور يتضح فعلا في تفسيره لقصة
خلق آدم على أساس أن آدم لم يكن « أول حيوان مشى على رجلين،
ولم يكن أول حيوان ناطق ولا أول كائن ذكي » ودون أن يحدد
نوع الكائنات التي سبقت في هذه الناحية هل هي الملائكة
أم القردة الانسانية يقول : « ولكنه أول انسان من حيث أنه
أصبح عالما بالحرام والحلال ذا ارادة وذا قدرة على المعرفة
والآيات صريحة في ذلك » • (قصة آدم/الذكر الحكيم)

من هذا يتبين لنا أن تطبيق هذا المنهج على المفاهيم
الفلسفية والدينية والفنية قد يؤدي الى تصحيح كثير من
التصورات الخاطئة التي علفت بالفكر على مدى قرون عديدة
والتي لازالت تكبل العقل العربي وتحد من انطلاقه في آفاق
العلوم والفنون ، وهو أمر ضروري لفتح الطريق أمام الوضوح
الفكري والعقائدي ، حتى يكون الفكر أكثر صدقا ولصوقا
بالواقع يأخذ منه ويعطيه ويدفع بالحلول الصحيحة لمشاكله •

لقد حاول كامل حسين أن يملأ الفجوة بين السماء والأرض
على أساس طبيعي ، بدءا من أسفل الى أعلى ، كي يهدم بهذا
أساس الثنائية والغائية في الفكر •• ولم يعد هناك طبقا لهذا
المذهب الجديد ضرورة للازدواجية والتلفيق الفكري • ولم يعد

هناك مجال لأن يقول أحد بأن هذا مادي أو هذا معنوي •
فكل منهما يؤدي الى الآخر اذ أصبحا شيئاً واحداً في منهج
تدرج القوانين ، ولم تعد التفرقة بينهما جائزة •
وقد نبه المؤلف لهذه المشكلة حين قال :

« لا أود أن يوصف هذا التفسير الذي اتناوله بالمادية •
والذين يتبعون هذا البحث الى آخره سيرون اعترافاً صريحاً
بوجود ما فوق الانسان • الا ان هذا الاعتراف لا يخالف
القول بأن حياة الانسان كلها مادية كانت أو معنوية ليست
الا نتيجة طبيعية لوظائف أعضائه ومنها المخ الذي يتعلق بوظيفته
كل ما هو انساني خالص » •

وفي رأيي ان هذا المنهج الطبيعي هو تجديد وتطوير لنظرية
التطور التي عرضها داروين في كتابه « أصل الأنواع » • منذ
أقل من قرن ونصف • وهذه المساهمة المصرية التي قدمها
كامل حسين تستند الى ما حققه العلم من كشف في البيولوجيا
والطبيعة والكيمياء • وتطوير النظرية لتشمل مجال المعرفة
الانسانية وتنظيمها هو مكنم التجديد والأصالة •

وظني ان اثاره الاهتمام بهذه النظرية ، قد يترك أثراً في
تجديد الفكر العربي لن يقل عما تركته كتابات ابن رشد في
ميدان الفلسفة ، أو لما كان لمقدمة ابن خلدون بالنسبة لعلم
الاجتماع •

معركة بين العقاد ومحمد كامل حسين حول كتاب « وحدة المعرفة »

بدأت هذه المعركة بخطاب أرسله قارىء للأستاذ العقاد يقول فيه ان هناك تشابها واضحا بين ما كتبه الدكتور محمد كامل حسين (في وحدة المعرفة) ، وبين ما نادى به الكسندر صمويل من قبل في كتبه التي تضمنت آراءه ومباحثه في الميدان الفلسفي ثم طلب من الأستاذ العقاد التفضل بتناول هذه القضية في يوميات الأخبار وهل هناك اقتباس أم أنه توارد خواطر ؟

نشر هذا الخطاب الذي أرسله عبد العزيز البدرى من ميت غمر يوميات العقاد بصحيفة الأخبار (١٤ / ١١ / ١٩٦٢) ورد عليه الأستاذ العقاد قائلا :

« ان التشابه تام بين كتاب « وحدة المعرفة » وبين قواعد مذهب الاسكندر في التطور وأصول الأخلاق وصفات المادة والربوية وقد بسط الفيلسوف مذهبه هذا في كتابه الذي ألقاه محاضرات ثم نشره سنة ١٩٣٤ في مجلدين باسم « المكان والزمان والربوية » .

وبعض آراء الفيلسوف فيما يدور حول مبحث الجمال

والفن مفصل في كتابه الآخر « الجمال وصور من القيم الأخرى »
وقد لخصنا مذهب الفيلسوف عن الربوبية في كتابنا عن « الله »
الذي ألفناه قبل ستة عشرة سنة (صفحة ٢٥٢ - ٢٥٤) وهو
الجانب الذي يتناول الربوبية وصفات المادة وعدنا في كتاب
عقائد المفكرين الى بيان مذهبه وعقيدته ببعض الايجاز .

أما السؤال عن توارد الخواطر فالأستاذ المؤلف أولى منا
بالاجابة عنه قبل تفصيل القول » .

وواضح من عبارة « قبل تفصيل القول » أن العقاد كان
يتحين الفرصة للأجهاز على هذا الكتاب وذبح مؤلفه على طريقة
العقاد المعروفة في مواجهة خصومه . وكان هذا كافيا طبعا
لاستفزاز الدكتور محمد كامل حسين فكتب مقالا (بالأخبار
٢١/١١/٦٢) يرد فيه على العقاد ويهاجمه بقسوة ويتهمه بعدم
القدرة على التمييز في البحوث العلمية وما يقوم عليها .

بدأ الدكتور كامل حسين رده قائلا :

« لا أظن الأستاذ العقاد جادا في دعواه أن كتابي « وحدة
المعرفة » منقول عن كتاب آخر . فهو لم يقم على هذه الدعوى
دليلا أو شبه دليل . بل ترك الأمر لي مع علمه أن البيئة على
من ادعى . وأصالة كتابي مسألة لا يتطرق اليها الشك . ولم
يحدث في حياتي الفكرية كلها أن ثقلت كلمة صغيرة أو كبيرة

لأحد من الناس دون أن أنسبها الى قائلها • ثم أنى لا أعرف هذا الصمويل الكسندر الذى يصفه الأستاذ العقاد أنه أبو فلسفة يعينها فى انجلترا والذى زاده مجدا على مجده وزاد كتابه عظمة فوق عظمته أن الأستاذ العقاد لخص كتابه • والمعنيون بالعلوم فى شغل عن أن يتلقوا معلوماتهم من ملخصات ولو كان الملخص الأستاذ العقاد » •

ومما قاله أيضا :

« وأصالة كتابى يدركها من له حس صادق فى البحوث العلمية والمذاهب الفكرية التى تقوم عليها فهو بناء يقوم كل جزء منه على ما سبقه فى تسلسل منطقى علمى ليس فى منطقة ثغرة • وقد يتبين أن المذهب الفكرى الذى يقوم عليه الكتاب خطأ كله • ولكنه لا يمكن الطعن فيه بأنه منقول • وأسلوب الكتاب وترتيبه لا يدعان مجالا للشك فى أنه أصيل » •

« والأستاذ العقاد صادق الحس فى الشعر والأدب • ولكنه ليس صادق الحس فى البحوث العلمية وما يقوم عليها • لأن صدق الحس فى العلوم ينشأ من ممارستها ممارسة طويلة • وقد خافه الحس حين ذكر أن التشابه تام بين كتابى وكتاب من يلحد اليه • لأن الفرق بين المذاهب العلمية قد يدق على من لا يحسن العلم بها • وسأسوق الى الأستاذ العقاد بعض أمثلة

قد يتدبرها ليتبين أن ما يدعيه من تشابه قد يكون أصله عدم
تبصره بحقيقة مذاهب التفكير العلمية .

ثم قدم أمثلة بمن يقول أن التشابه تام بين قصيدة شوقي
« يا أخت يوشع خبرينا » ومعلقة عمرو بن كلثوم « ألا هبني
بصحنك فأصبحينا » وأن شوقي سرق قصيدته من المعلقة
لأن القصيدتين متفتحتين في الوزن والقافية ثم تساءل « ألا يرى
العقاد أن ذلك دليلا على أن محدثه لا بصر له بالشعر . وإذا
جاءه رجل يقول له أن روفائيل سرق صورته من لينونارد
لأن الصورتين تصوران العذراء وطفلها . ألا يكون رد الأستاذ
عليه اذهب وتعلم فن التصوير . » وكذلك من يقول بأن كل
الأوبرات متشابهة فهو عديم الحس بالموسيقى . ثم ينتهي إلى
أن ما يقوله العقاد عن التشابه التام بين كتابه والكتاب الذي
لخصه ليس بعيدا عن هذه الأمثلة .

ثم يفرق بين مناهج نقد الشعر والأدب وبين مناهج نقد
العلوم قائلا : « وأصالة الأستاذ العقاد في الشعر والأدب حملته
على أن ينقل إلى ميدان العلوم والفلسفة أسلوبا في النقد
لا يصلح للعلوم . ذلك أن بضاعة النقد القائم على دعوى
السرقا الأدبية لا تتفق في سوق البحوث العلمية وما تقوم
عليها . والمشتغلون بالعلوم لا يعرفون هذا الأسلوب ويفضلون
أن يتركوه للأدباء وللأدباء القدامى بالذات وخاصة من ينقدون

الشعر العربى • وللشعر العربى صفات خاصة قد تجعل النقد يدعى السرقة مقبولا • على أن أكثر النقاد والمحدثين لا يعبأون بهذا اللون من النقد أما فى العلوم فلا يمكن أن يكون هذا سبيل النقد الحق لأن كل نظرية علمية تقوم على حقائق سابقة ولم يقل أحد أن هكسلى سرق من داروين لأن كليهما أثبت التطور • ولم يقل أحد أن توينبى سرق من شبنجلر على ما فى بعض آرائهما من تشابه •

« والعلوم تبحث عن الحقيقة وهى ثابتة • والتفاضل بين البحوث يقوم على نجاحها فى إثبات الحقيقة وعلى الطريقة المؤدية الى هذا الإثبات • وعلى إيجاد مذهب مستقيم متكامل يضم أشتات القوانين الطبيعية والانسانية والسمائية ويحدد علاقاتها (ويرجع الأستاذ الى كتاب « وحدة المعرفة » وفيه شرح وافى لهذه المسألة) ألا يعلم الأستاذ العقاد أن كل كتب التوحيد تودى آخر الأمر الى إثبات وجود الله • فهل كل كتاب منها مسروق من الآخر • وكل الكتب التى تبحث فى التطور والنسبية تودى الى نتائج واحدة فهل يرى أنها مسروق بعضها من بعض لأنها تعالج موضوعا واحدا وتصل الى نتائج متقاربة •

وهذا الكلام صحيح ولاشك الا أن نقطة الضعف فى رده كانت فى البيخرية من سمبول الكسندر ثم قوله بأن دائرة

المعارف الانجليزية لا تعرفه ثم اتهمه للعقاد بعدم التبصر لهذه الأمور وبالغرور ثم دعاه لأن يتعلم التواضع •

وقد وجد العقاد في هذه النقاط ضالته وأمسك بتلابيب المؤلف محاولاً القضاء عليه وعلى كتابه في مقالين متتاليين في الأخبار •

وجاء المقال الأول على طريقة التهديدات التي يطلقها الملاكمون عادة قبل بداية المباراة اذ يحاول كل ملاكم أن يثبت الرعب في قلب خصمه أو منافسه كما أنها وسيلة يحاولون بها لفت نظر الجمهور وشده لحضور المباراة •

وتحت عنوان « مثل في التواضع والخبرة بالدراسة » رد العقاد على كلام الدكتور محمد كامل حسين (٢٢/١١/٦٢) وراح يكيل له الصاع صاعين حيث يقول « سئلنا رأينا في التشابه بين مذهب الكسندر وكتاب « وحدة المعرفة » للدكتور محمد كامل حسين فقلنا أن التشابه تام وأحلنا الرد في أمر الاقتباس وتوارد الخواطر الى الدكتور محمد كامل حسين مجاملة له وإبقاء على كرامته ، اذا شاء أن يبقى عليها •

وبعد أسبوع من ظهور اليوميات نشر الدكتور رده فاذا هو يقابل منا هذه الرعاية بما يدل على حقيقة حظه من البحث

والعلم والخبرة بالدراسات الفكرية كما يدل على حقيقة حظه
من أصول المناقشة والمناظرة •

ثم أخذ يعدد النقاط التي استوقفته في كلام الدكتور
محمد كامل حسين استعدادا لتفنيدها والرد عليها •

ومما قاله الدكتور عن صمويل الكسندر : « أنا لا أعرف
هذا الصمويل الكسندر والذي يصفه العقاد أنه أبو فلسفة بعينها
في انجلترا » وفي موضع آخر « ولم أعثر على معلومات عن هذا
العلم من اعلام الفلسفه الانجليزية ودائرة المعارف البريطانية
لا تعرفه ولا أدري هل هو فيلسوف نجأ الى العلوم ليثبت
نظرياته أم هو أصلا عالم طبيعي امتد به التفكير العلمى الى أن
شمل المباحث الفلسفية » وقال عن فلسفته أيضا :

« ولو قرأ الأستاذ العقاد الكتاب كله (وحدة المعرفة)
وعكف على تفهمه ودرسه درسا دقيقا وهو كتاب - عسير -
لرأى فيه أشياء كثيرة لا يمكن أن تكون في كتاب صمويل
هذا » •

ثم يستطرد العقاد قائلا :

« أما نصيبنا نحن من تحقيق اليحائه وأسلوب مناقشاته
فمنه - أن العقاد ليس صادق الحس في البحوث العلمية
وما يقوم عليها ... » •

ومنه « واني أرجو الأستاذ العقاد رجاء حارا أن يقرأ كتابي (وحدة المعرفة) قراءة درس واستيعاب • وهو قد لخص كتاب صمويل وقد يرى أن يلخص كتابي أيضا وهو قد شرح فلسفة صمويل في كتابه عن الله ولعله يشرح فلسفتي في كتابه عن نفسه وهو الكتاب الذي سيظهر قريبا وسيكون عنوانه من غير شك - التواضع » •

ولم يكن من طبيعة العقاد وهو مفكر شديد الاعتداد بالنفس أن يسكت على من يتهمة بنقص الحس أو البصيرة في أي شأن من شئون الفكر والعلم • لهذا أخذ بعد أن استعرض الاتهامات في الرد عليها بنفس اللهجة الشديدة :

« ونحن اذن نفتقر الى التواضع الذي يتحلى به الدكتور ، والى تمحيص الدعاوى العلمية على طريقته التي يجيدها • ومنها ادعاؤه على كتاب يزعم أنه لم يقرأه أن يستحيل أن تكون فيه تلك الآراء التي لا يجوز أن تخطر على بال أحد سواه ••• !

« وبغير دليل على الاطلاق يقول الدكتور ما قاله : لكننا - بدليل من كلامه وشاهد من قلمه على نفسه - نقول أن الدكتور لا يحسن البحث والدعوى ولا يحتاج الى شيء كما يحتاج الى التواضع ، ولا يحق له أن يخوض في مسائل الفلسفة لأنها شيء غريب عن تجبير العظام •

فالدكتور المجبر لم يمارس البحث مراسا طويلا ولا قصيرا ،
والا لما فاته أن يعرف صمويل الكسندر الذى عرفناه وشرحنا
مذهبه منذ أكثر من ستة عشرة سنة ، ولو كان ممن يمارسون
البحث لما قال عن صمويل الكسندر « هذا الصمويل
أو صمويل هذا » أو أنه لم يعرفه ولم يسمع به . وليس بين
الفلاسفة المعاصرين من هو أشهر منه في عالم الثقافة الأوروبية » .

« ومن طريقته التى نجانا الله منها في حسن البحث أنه يزعم
أن دائرة المعارف البريطانية لا تعرف « صمويل هذا » وهى
قد عرفتة وقالت عنه أنه أحد الفلاسفة القلائل الذين تمموا
للفلسفة فيما وراء الطبيعة مذهباً كاملاً ينسب اليه » .

« ففى أول الصفحة (٥٧٦) من أول جزء فى الدائرة يقول
محررها الفلسفى : أنه واحد من الفلاسفة البريطان القلائل فى
النصف الأول من القرن العشرين أنشأ مذهباً كاملاً محيطاً فيما
وراء الطبيعة . »

ثم يقول أنه نال جائزة جرين فى الفلسفة الأخلاقية ، وتطور
اشتغاله بالفلسفة فوجد الحاجة ماسة الى الربط بينها وبين
علم السيكلوجى . . . وفى خلال سنتى ١٨٩٠ - ١٨٩١ درس
السيكلوجية التجريبية فى ألمانيا على الدكتور هوجو منستربرج
وفى سنة ١٨٩٣ بعد عودة قصيرة الى أكسفورد عين أستاذاً

للفلسفة بجامعة مانشستر وكان واحدا من نخبة أساتذتها
الناهين ... ثم لخصت الدائرة فلسفته فقالت ما ترجمته حرفيا :
« ان التقاء الزمان والمكان عنده كان رحم كوني تتولد فيه طبقات
من الكائنات تشتمل على خصائص المادة والحياة والعقل كل
منها تحيط بما قبلها وتدل على اتجاه الى ما هو فوقها والربوبية
دائما هي الطبقة الثانية بعد الطبقة التي اتجه اليها التطور
الكوني » •

« وقبل أن تنتقل الى التعقيب على ما تقدم نقول : ان
الأفكار التي سمح الدكتور محمد كامل حسين تحقيقه العلمي
أن يقول باستحالة ورودها في كتاب الفيلسوف الكبير قد احتواها
كلها تلخيص دائرة المعارف البريطانية التي يقول الدكتور انها
لا تعرفه فلم يكن مستجيلا أن يشرح الكسندر تفاضل القوانين
من المادة الى العقل قبل أن يتكر الدكتور - على دعواه -
هذا الترتيب في دراسة المعرفة والتطور كما قال على الصفحة
الثالثة • • « وهي قوانين المادة ثم تلو ذلك قوانين الحياة •
ثم تأتي بعدها قوانين الانسان وهي أخص وأرقى • • » •

« وفي صفحة ١٦١ - أي في أواخر الكتاب يقول الدكتور
« ان لكل شيء ربا وأن رب أي شيء هو القوة أو القانون
الذي يعلوه • وقد يكون في هذا المذهب مفتاح نظرية الربوبية
وموضعها العلمي من النظام والكون » •

« فمن صفحة (٣) الى صفحة (١٦١) في كتاب
وحدة المعرفة يحكى الدكتور مذهب الفيلسوف ولو اكتفينا فيه
بهذه الخلاصة في دائرة المعارف البريطانية التى تعرفه ، ولكن
العجب العجيب انما يدرك القارئ من المراجعة بالكلمة والعبارة
لما قد شرحه ذلك « الصمويل » على حد قول الأستاذ المتواضع
محمد كامل حسين ! وبالدليل القاطع يثبت الى الآن تقيض كل
ما ادعاه الأستاذ لنفسه وادعاه علينا .

« فليس هو طويل الدراسة للمباحث الفكرية لأن من كان
طويل الدراسة لها لن يبلغ من جهله بفلسفة القرن العشرين أن
يخفى عليه مذهب المثالية التجريبية وهو بهذه المكانة من عالم
الثقافة » .

« وليس الدكتور بالرجل الذى يعلمنا أدب المتواضع
لأن المتواضع يذكر الحياء والواجب حين تحته نفسه باحتقار هذا
« الصمويل » لغير ذنب جناه غير فلسفته التى يتعامل بها السيد
« الهمام » .

وليس الدكتور محققا فى بحثه وتمحيصه لأن الباحث
المحقق لا يدعى على دائرة معارف تملأ الأرض أنها خالية من ذكر
الفيلسوف ، وهى تنوه بشأنه هذا التنويه .

ثم ختم العقاد مقاله قائلا :

« ولا نريد بعد هذا كله أن نتعلم على يد الدكتور درسا في التواضع لأننا نحس بعد مقالاته ودعاويه أننا بحاجة شديدة الى درس آخر يعوزنا الآن »

« ذلك الدرس هو الكبرياء التي كان ينبغي أن تتعلمها ليعلم الدكتور كيف يتواضع أمام من هم أخبر منه بما يدرسون، ولعله يراجع برنامج الدروس اللازمة لنا وله بعد استيفاء هذا البحث في اليوميات »

وجاءت اليوميات أشد قسوة في الرد على ما قاله كامل حسين • بدأها العقاد قائلا :

« ليس في وسع كامل حسين أن يجزم باستحالة نسبة « وحدة المعرفة » الى هذا الصمويل » لأنه قد أصبح من الاشاعات الذائعة التي نقلت عنه الى لغتنا في كتاب « نحو فلسفة » علمية للدكتور زكي نجيب حيث يقول في مقدمته عن صمويل :

« وهو فيلسوف تجريبي تركيبي معا وهو يعتقد بأن الفلسفة لا تختلف عن العلم الا في كونها تبحث في مشكلات أهم من مشكلات العلم لكنهما معا يدوران حول موضوعات بعينها » :

« والدكتور محمد كامل حسين مولع باعادة ابتكار الآراء التي يجهلها من آراء هذا الفيلسوف خاصة ، ولكنه يطبقها

كذلك على طريقة مبتكرة بحق ، لا يستطيع أن ينازعه فيها أحد غيره ، لأنه يؤلف كتابا عن وحدة المعرفة ثم يقيم السدود بين أبواب المعرفة ويفرض الاختصاص في كل باب منها • ويحرم علينا - بصفة خاصة - أن نميز بين مذاهب المفكرين لأننا لا نحسنها كما يحسنها هو بمعرفته الشاملة الكاملة ولا يجوز لنا أن نكتسب هذا التمييز بعد خمسين سنة في قراءة الفلسفة وعشرين سنة في تأليف الكتب المستقلة عن الفلاسفة » •

وعن بحث الدكتور عن دائرة المعارف يقول العقاد •

« فدائرة المعارف أولا ليس مرجع المختصين في الفلسفة لأنها مرجع عام للمعارف البشرية تلم كل معرفة منها بما تتطلبه الحاجة الى المراجعة العامة • وانما يعتمد المختصون على دائرة المعارف الفلسفية وعلى أمهات كتب الفلسفة وعلى مؤلفات الفلاسفة أنفسهم أو شروح المعلقين على مؤلفاتهم ولو كان الدكتور يحسن البحث عن مراجعته لما احتاج الى دائرة المعارف البريطانية في هذا الموضوع » •

« ودائرة المعارف ثانيا : لم تهمل ذلك الصمويل كما يقول الدكتور لأنها ذكرته ولخصت مذهبه في أول جزء من أجزائها وأحدث طبعة من طبعاتها فاذا كان الدكتور لا يحسن أن يستخرج موضوعا في الدائرة التي يراجعها « العموم » فليس في نقص القدرة على البحث غاية بعد هذه الغاية ، واذا كان الدكتور

يجزم بإهمال الدائرة لأنه يملك طبعة منها غير الطبعة الحديثة
فليس للتعجل بالاثبات والانكار غاية بعد هذه الغاية » .

« على أن الدكتور يقع في محذور أشد من هذا المحذور
إذا قال أنه اعتمد على الطبعة الرابعة عشرة ولم يعتمد على أحدث
الطبقات » .

فهذه الطبعة لم تكتب للفيلسوف صمويل الكسندر ترجمة
حياة لأنها صدرت وهو بقيد الحياة . ولكنها ذكرته في عدة
مواضع وخصته بقسم مستقل من تقسيماتها لتاريخ الفلسفة
لخصت فيه مذهب الفيلسوف عن تفاضل القوانين باسمه التي
يقول الدكتور أنه « ابتكره » بعد ذلك بثلاثين سنة يقول بكل
شجاعة أنه يقترحه . . نعم يقترحه لأول مرة ويسميه لأول مرة
ولا يمكن - طبعا - أن يكون أحد قد ابتكره قبله وقبل هذه
المرّة . ونعني به اسم الهيرارشية باللغة الانجليزية وباللفظ الذي
نقله الدكتور الى اللغة العربية كما هو حيث قال ص ٥٧ :

« يقوم البناء الذي اقترحه للمعرفة على نظرية تفاضل
القوانين - هيرارشية القوانين - » .

أما الذي قالته دائرة المعارف فهو كما جاء في صفحة (٧٥٨)
من الجزء السابع عشر بترجمته الحرفية :
« ان الموجودات تثبت في أحوال معينة وتتكون منها

هيرارشية .. » الى أن قالت : « وبهذه الهيرارشية تكون الموجودات العليا لها صفات ما دونها ولكنها تتصرف فيها بخلاف تصرفها ، فهي تستمتع بصفاتها العليا باطنيا ومباشرة • ولكنها تدرك صفاتها الدنيا خارجيا على درجات ، ولنا بالقياس العقلي أن نقدر وجود صفات أعلى من ذلك الربوبية ، فكما أن الوعي المدرك هو أعلى صفة في الانسان كذلك الربوبية أعلى صفات الاله وكيانه هو الوجود كله يترقى الى الوجود الالهي ، ولما كان الزمن لا يبلغ تمامه - أو نهايته - أبدا فالصفات الأعلى فالأعلى لاتزال منشقة على الدوام • ولايزال العالم في تطلعه الى الربوبية يحفز فينا الشوق الدائم الى الله •

ثم يتساءل عما كتبه الدكتور ويستطرد :

« ونعود الى كتاب وحدة المعرفة التي هي من مبتكرات الدكتور لحساب هذا الصمويل أيضا ، فلا نجد في فصل منه فكرة واحدة لم ترد في « مذهب الفيلسوف المجهول » لدى الدكتور : ليس هناك عبارة واحدة عن التطور الزمني وعن ماهية الزمن وعن التفكير الثنائي ، وعن أصالة الصفات أو الأخلاق البيولوجية ، وعن القوانين والحوادث ، وعن الحياة والوعي ، وعن الربوبية والاله ، لم يشرحها الفيلسوف المجهول ويتبرع له الدكتور بابتكارها مرة أخرى بعد ستين » •

ثم يضرب العقاد شواهد على ذلك مما لخصه في كتابه
عن « الله » حيث يقول :

« في صفحة ٢٥٣ لخصنا مذهب الفيلسوف في درجات
الكائنات وتفاضلها بالصفات ، وخلصته كما ترجمناه يومئذ قبل
أن نعلم أن الدكتور سيبتكره واننا سنقيم الحجة عليه :

« اذا حدثت الحركة فذلك هو اتصال الزمان والمكان .
واذا وجدت الحركة وجد الاشعاع وتسلسلت الأشياء المادية
من هذا الاشعاع . وهي تبدو على درجات ، فأدنى طبقات المادة
بعد صدورها من الفضاء والزمان هي المادة ذات الخصائص
الأولية : وهي الحجم والشكل والعدد والحركة ، ثم تعلوها طبقة
الخصائص التي تترقى الى اللون والصوت والرائحة ودرجة
الحرارة ، أو بعبارة أخرى أن الخصائص الأولية تدرك بجميع
الحواس ، وأن الخصائص التالية لها تحتاج الى التخصيص فتدرك
كل منها باحدى الحواس ، ولا تتم الخاصة للشيء الا مع اتصاله
بشيء آخر ، كما يتم اللون مع اتصال الشيء بالنور ، ويتم
الصوت مع اتصال الشيء بالهواء فلا بد له في هذه الحالة من
بعض التركيب .

وبخلاصة الفيلسوف عن النظام والمنظم كما يقول
العقاد هي :

« اتنا اذا استبدلنا كلمة النظام بكلمة المنظم فلا نعدو بذلك
أن نسمى هذه الحقيقة الواقعة : وهى أن العالم يجرى على
نسق يخرج منه النظام • وفى وسعنا أن نسمى العالم الذى تدركه
على هذا النحو — الها » •

ثم يقول العقاد « وفى صفحة (٢٥٤) نلخص كلامه عن
العقل والربوبية وهو : ان الكون لا يزال يعرض لنا انبثاقا بعد
انبثاق بسلسلة من الكائنات الموجودة يتسم كل منها بخصائصه
، وصفاته ، وأرفع الصفات المعروفة لدينا هو العقل أو الواعية •
والاله هو الكائن الذى يعلو أعلى ما عرفناه » •

« وتتمه هذا رأى قوله أنه « لما كان الزمان أبديا بغير
اتتهاء وكان هو مصدر النماء والارتقاء فليس فى استطاعتنا أن
نتخيله واقفا عند اخراج تلك الكائنات المحدودة التى تتسم بسمة
خاصة أو الواعية ، ولابد لنا من أن نرسل الفكر على الاتجاه
الذى ترسمناه من تجارب الانبثاق السابقة التى تمخضت عن
الصفات الرفيعة ، فان فى الزمان والفضاء باعثا يدفع مخلوقاتهما
الى طبقة أرفع فأرفع كما دفع بها الى طبقة العاقلة أو الواعية
وليس فى العقل ما يدعونا الى الوقوف عند حد من الحدود لنقول
انه هو الحد الأقصى لما يبتثقه الزمان من الآن الى أبد
الأباد — بل يكرهنا الزمان نفسه على انتظار مولود آخر من
مواليد ، ومن ثم يسوغ لنا أن تتبّع سلسلة الصفات وتتخيل تلك

الكائنات المحدودة التي سمينها ملائكة ، وهي كائنات نستمتع بوجودها الملائكى ولكنها تتأمل العقل على نحو يعجز العقل عنه كما نرى العقل يتأمل ما دونه من مراتب الحياة والموجودات السنى . * وعلينا أن نسأل كيف تكون العلاقة بين هذه الآلهة المحدودة المسماة بالملائكة وبين الاله الذى ليست له حدود ؟ فالاله اذن هو الطبقة المثالية التى تعلو طبقة العقل والواعية والالوهية صفة تتولى الصفات التى دونها من طبقة العقل الذى يقوم هو أيضا على ما دونه من صفات وينبثق عندما قبلى الكائنات مبلغا مقدورا من التركيب والتنسيق . *

ويمضى الفيلسوف فى التقدير والتخمين فيقدر أن الاله الأعلى الذى ينبثق عنه العالم هو من معدن الروح والعقل لأنهما الطريق التى تأدينا منها اليه ولكنه يشارك الموجودات فى خصائصها الكونية كما يشترك الانسان العاقل فى خصائص المادة وخصائص سائر الأحياء على نحو من الأنحاء . * (ص ٢٥٥) *

وفى الفترة بين ظهور مقالى العقاد نشر الدكتور زكى نجيب محمود مقالا يؤيد فيه العقاد ويتهم الدكتور كامل حسين بتلخيص كتاب صمويل . *

وقد روى أنه تحدث فى ندرة اذاعية من ثلاث سنوات عقب ظهور « وحدة المعرفة » وقال فيها :

« ان الدكتور كامل حسين مشكور بغير شك على تقديمه هذه المادة لقراء العربية ، لكننى كنت أتوقع أن يشير الى كتاب « المكان والزمان والربوبية » لصمويل الكسندر لعل قارئاً مستقصياً يجب أن يتوسع فى الموضوع بعد أن قرأ خلاصة له ، وأرجح جداً أن يكون الدكتور قد سمع تلك الاذاعة عندئذ - وعندى شاهد على ذلك - لكنه سكت عن الموضوع حينئذ - ولعل مرجع سكوته اذ ذاك هو « ان صاحب القول لم يكن فى رأيه بذى خطر » •

ثم يقول انه دهش حين رد الدكتور كامل حسين على العقاد الذى يؤكد فيه انه لم ينقل حرفاً وانه المبتكر الأصل « وبعد أن يفند التشبيهات التى ساقها الدكتور كامل حسين يستبعد ان يكون هذا التشابه كله مصادفة عابرة والعينان هما العينان والشفتان هما الشفتان » •

هذه كلمة المتخصص :

وتحت هذا العنوان قال الدكتور زكى نجيب : « ان الدكتور كامل حسين ليهمة أن تكون الكلمة للمختص ، فما هى مادة الكتاب التى تريد اختصاصاً ؟ انه ليس علماً خالصاً ، ولا هو أدب خالص ، انما هو كتاب فى « فلسفة العلم » وكاتب هذه السطور قد نال درجاته العلمية فى فلسفة العلم هذه بالذات ويأكل خبزه منها كما يأكل الدكتور كامل خبزه من طب العظام ، فليمنه

الحق في ابداء الرأي في مسألة تتعلق بفلسفة العلم مثل ما له من الحق في ابداء الرأي في مسألة تتعلق بطب العظام ولو طالب بأكثر من هذا كان خارجا على المبدأ الذي فرضه ، وهو أن يكون الرأي للمختص أولا ولغيره ثانيا .

والرأي الذي لا أشك فيه لحظة واحدة هو أن كتاب (وحدة المعرفة) — في أصوله وفروعه — هو تلخيص مفكر مجتهد ، قد يقف عند الأصل كما هو حينا وقد يحاول التعديل أحيانا ، فلما الاطار الذي يقوم عليه البناء كله فالدكتور متأثر فيه بصمويل الكسندر ، وانه ليتساءل في رده على الأستاذ العقاد هل جاء في كتاب صمويل هذا شيء عن « نظرية القوانين والأشياء ، وتفاضل القوانين ، وعلاقة القوانين العليا بالقوانين الدنيا وان العليا تعرف تصرف القوانين الدنيا ولكن القوانين الدنيا لا تعرف من العليا الا وجودها ... الخ » وينفى الدكتور بشدة أن يكون شيء من هذا كله قد ورد في هذا الأصل للزعم .

« ثم يشير الدكتور زكي نجيب محمود الى الفصل الثاني من الجزء الثاني من كتاب صمويل عن ترتيب المستويات ويقول أن كامل حسين لخصه في ثلاث صفحات (٦٧ — ٧٠) فيرد فيها قوله » .

« ان كل نمط جديد من أنماط الوجود جين ينشأ يكون

من الممكن التعبير عنه تعبيراً كاملاً ، تعبيراً يستنفده ولا يترك فيه بقية ، بلغة المرحلة الأولى ، وبالتالي فهو يعبر عنه ، بلغة المرحلة الأولى ، وبالتالي فهو يعبر عنه عن طريق غير مباشر – بلغة المراحل الدنيا جميعاً – فنعبر عن العقل بلغة العملية الحيوية ثم نعبر عن الحياة بلغة العملية الفيزيا كيميائية ، ونعبر عن صفة الحس – كاللون بلغة المادة وما بها من حركات ثم نعبر عن المادة ذاتها بلغة الحركة • فمما هو أدنى قد يتصف جزء منه بتركيبية معقدة من الصفات تجعله كأنما هو كائن ذو كيفية جديدة • يعلو بها على بقية مستواه ، فيصبح ذلك الجزء بالنسبة الى تلك البقية بمثابة العقل أو بمثابة الصورة من المادة ، أى أن الأعلى يكون بمثابة القانون الأعم الذى يشمل القانون الأدنى الذى هو مجسد فى الشيء قبل أن ينشأ عنه ذلك الجزء الذى امتاز بكيف جديد • فلو بدأت من بسائط الكون الأولية (وهى عنده – المكان زمان المجرى) • تجد طريقاً متصلاً فى صعوده من نمط أدنى الى نمط أعلى ، بحيث يكون لكل نمط أعلى قوانينه التى تشمل قوانين الأدنى ، لكن قوانين الأدنى لا تستوعب قوانين الأعلى •

« وخذ الفصل الرابع وعنوانه (العقل والمعرفة) لترى كيف يفصل فيه القول تفصيلاً فى علاقة الأعلى بالأدنى حتى اذا ما جئنا للكتاب الرابع الذى يقصر البحث فيه على (الربوبية) والذى يشرح الفكرة القائلة « بأن الأعلى هو رب الأدنى يقرر له مساره

وطريقه ، وصلنا الى المرجع الحاسم الذى يقرر علاقه بين الأصل
وصداه فأقرأ فى نهاية كتاب الدكتور كامل حسين (صفحہ ١٦١)
فوله :

« سبق أن بينا أن لكل شيء ربا وان رب أى شيء هو
القوة أو القانون الذى يعلوه فيؤثر فى حياته... (لنعلم أن ما قد
سبق له أن بينه فى الكتاب هو نفسه الذى بينه كتاب المكان
والزمان والربوبية » •

ويمضى الدكتور زكى نجيب فى تأكيده هذه التهمة قائلا :

« أما بعد فلو قال الدكتور كامل حسين انه (استوحى)
ذلك الكتاب ثقلنا : قد يكون ذلك ، أما أن ينكر كل علاقة له
بالكتاب وصاحبه فأمر يستحيل تصديقه ، ولا عبرة بعد ذلك ،
أىكون صمويل الكسندر ذا مكانة عالية أو خفيضة فى تاريخ
الفكر المعاصر ، لأن قيمة الرجل لا شأن لها بما نحن بصدد
الحديث فيه • فقد يكون أته التافهين ومع ذلك ربما عن لحد
أن يأخذ عنه ، بل ربما كانت العلة فى السكوت عن ذكر المصدر
الأصيل هى انه فى رأى الناقل مصدر مظلم مجهول لا تراه
الابصار » •

لقد حرصت على تقديم هذا الملخص الوافى للمقالات
المذكورة لا ثقل للقارئ جو الحدة والعصية الذى سيطر على
هؤلاء المتحاورين لتحول الخلاف العلمى الى معركة شخصية

يُوجِبها الكبرياء ، الذاتى والاعتداد بالنفس خصوصا من جانب العقاد : ولا نستطيع أن نلومه على هذه اللهجة فقد ابتدأه الدكتور محمد كامل حسين بالهجوم حين تباهى عليه بتخصصه فى دراسة العلوم ثم اتهمه بعدم القدرة على التمييز فى المسائل العلمية .

كذلك كان اعترافه بعدم معرفة صمويل الكسندر وقوله بأن دائرة المعارف البريطانية لا تعرفه نقصا فى المعرفة ليس له ما يبرره بالنسبة لعالم يتصدى للبحث فى هذه الأمور . . فقد كان يجب عليه مراجعة تاريخ الفلسفة والتعرف على ما قاله الفلاسفة فى هذا الجانب الذى يتعرض له . ولو صحت رواية الدكتور زكى نجيب محفوظ بأن الدكتور محمد كامل حسين قد سمع رأيه فى الاذاعة عن علاقة كتابه بفلسفة صمويل لكان الأمر أدهى وأمر . فلماذا لم يبحث عن كتاب صمويل الكسندر ويقرأه ويعرف مواطن التشابه والخلاف على حقيقتها . واذا تعذر عليه الحصول على الكتاب فلماذا لم يستوثق من الدكتور زكى نجيب ويتبين كل جوانب الأمر .

فالتشابه بين كتابه وأفكار صمويل موجود على النحو الذى ذكره الأستاذ العقاد والدكتور زكى نجيب محمود . وهو تشابه فى الأفكار الأساسية يلمسه كل من يقرأ مقدمة الطبعة الثانية من كتاب صمويل الكسندر (المكان والزمان الربوية) التى صدرت سنة ١٩٢٧ أثناء وجود الدكتور كامل حسين فى إنجلترا

يدرس للحصول على الدكتوراه ، وبالذات كلام صمويل عن
المعرفة •

وأنا استبعد أن يكون الدكتور كامل حسين قد نقل من
كتاب صمويل لأنه لو عرف صمويل لما قال أن دائرة المعارف
البريطانية لا تعرفه وأوقع نفسه في هذا الحرج الشديد ••
وأغلب ظنى أن المسألة مجرد توارد خواطر لأن هذه الأفكار
كانت مشاعة تثير اهتمام العلماء والفلاسفة في الفترة التى أعقبت
الحرب العالمية الأولى •

وبعد أن هدأت المعركة قرأ الدكتور محمد كامل حسين
كتاب صمويل الكسندر وقارن بينه وبين كتابه فى مقال عنوانه
« حول وحدة المعرفة » نشر بمجلة « المجلة » (يناير ١٩٦٣)
واعتذر فيه عن جهله بصمويل الكسندر •• وقال انه رجل فلسفة
يعنى بالمعزى والقيم أما البيولوجيا فتعنى بوسيلة التطور
(والميكائزم) التى يتم بها ، والكسندر جعل للجمال فلسفة عالية
أما هو فقد جعل الجمال والحب عملية فسيولوجية مخية
الكثرونية ، كما أنه رد جميع الفضائل والمعنويات الى أساس
طبيعى محتمل فى فسيولوجيا المخ •

كما اعترف بأن أكبر وجوه التشابه بين الكتاين هو
الاستعمال عبارة (هيرارشية القوانين) وقال انها كلمة معروفة

منذ القدم يتعلمها البيولوجيون في بداية دراستهم • وليست من ابتكار الكسندر • ولم تكن الالكترونات في كتاب الكسندر سنة ١٩٢٧ قد بلغت ما بلغته اليوم من تقدم (كما وضع في « وحدة المعرفة ») ١٩٥٨ ثم قال « وعلاقة هيرارشيتي القائمة على الذرة والالكترونات بهيرارشية الكسندر صمويل القائمة على النسبية كالعلاقة بين النسبية والجاذبية ، والنسبية تشمل الجاذبية وهي أثبت أصولا وأخصب » •

ثم حدد نقاط الأصلة في « وحدة المعرفة » على النحو التالي :

- ١ - البحث في أسباب تفرق أجزاء المعرفة •
- ٢ - نظرية الهرم المقلوب وصفا للمعرفة •
- ٣ - تناول العقل من حيث هو جهاز التفكير أو ترمومتره، وبحث صفاته التي تتعلق بالمعرفة لا في كنهها •
- ٤ - تصنيف مذاهب التفكير الى خرافي علمي وديني فلسفي •
- ٥ - حملته على العلة الغائبة •
- ٦ - رفض أن يكون مبدأ تنازع البقاء والبقاء للأصلح والاختيار الطبيعي هو السبب في التطور • لأن هذا

لا يفسر لنا بحال من الأحوال التشابه بين دم الانسان
ودم القرد في تجربة لا علاقة لها بهذه المسائل يتبين
منها أن العلاقة بين دم الانسان ودم القرد خاصة
عميقة جدا .

تم انهي مقاله قائلا : أليس خيرا من ذلك كله أن ندع كتاب
« وحدة المعرفة » ومؤلفه فليس هو آخر دلالة في الموضوع وأن
يتفضل أحد مفكرينا فيدي رأيا أصيلا في المعرفة وهل يمكن
توحيدها ، وهل يكون هذا التوحيد عن طريق النسبية كما فعل
الكسندر أم عن طريق الذرة والالكترونات (كما فعلت) أم عن
طريق اثنائية يكشفها لنا ويكون له من الأهمية خير الثناء .

على أن أهم ما جاء في هذا المقال الأخير هو اعتراف
الدكتور كامل حسين بتأثره بكتاب أوسبنسكي وهو يعرب عن
دهشته من ناقدية تركيزهم على كتاب الكسندر فقط قائلا :
« على اني لا أدري لم حدد الناقدون كتاب الكسندر بالذات ،
وهناك كتب أخرى تتناول الموضوعات نفسها بطريقة مماثلة تماما
لكتابه . ومنها كتاب أعرفه وتأثرت به ، وهو كتاب أوسبنسكي
Tertium Organon فليست دعواي اني لم أعرف الكسندر
ناشئه عن الرغبة في دعوى الابتكار ، ولكنها الواقع . وبهذه
المناسبة أقول أن موضوعات أوسبنسكي وموضوعات الكسندر
متشابهة الى أقصى حد ، ولم يقل أحد أن أوسبنسكي نقل عن

الكسندر ، لأن هذا النوع من النقد في مثل هذا المجال لا يقام له وزن .. والخبراء لاشك يقدرّون ما بين الكتّابين من فروق دقيقة » .

ثم يضيف الى ذلك قوله :

« وما شأن هذا كله وأنا أعترف في كل موضع من الكتاب انه ليس فيه معلومات جديدة ، ولا حقيقة واحدة جديدة ، وأن الغرض منه بسيط جدا هو (تفيطة) جديدة للمعلومات المعروفة يجعل نظامها أوضح . وهل يسأل الانسان في هذا العصر من أين أتى بمعلوماته عن الذرة والالكترونيات والتطور » .

ولاشك أن هذه هي كلمة الفصل في الموضوع كله . فالتشابه موجود بين الكتّابين بل وبين كتاب أوسبنسكي أيضا وبدرجات تنفي وجود النقل أو الاقتباس التي ركز عليها العقاد وزكى نجيب محمود .

ومع ذلك فالاختلاف موجود أيضا في بعض النواحي ، فصمويل الكسندر فيلسوف امتد اهتمامه الى العلوم الطبيعية وكامل حسين جراح عظام امتد اهتمامه الى ميدان الفلسفة وكتاب صمويل يقع في مجلدين وتزيد صفحاته على السبعمائه ، بينما كتاب (وحدة المعرفة) لا يزيد على مائتي صفحة ويتميز بالتركيز وحسن التنسيق .

كذلك لا يخلو هذا الكتاب من اضافة ، فهو يتحدث عما أكده العلم بالنسبة لنظرية التطور وعن طبيعة المادة

السنجاية المكونة لخلايا المخ وشرحه لطبيعة الذاكرة ووظيفتها وأهمية ذلك بالنسبة للعقل ووظيفته الفكرية وعلاقة ذلك كله بالأصل الطبيعي للفضائل والأخلاق •

ولاشك ان تقديم مثل هذا الكتاب يعد اضافة عظيمة للمكتبة العربية والفكر العربي ولا يقل من أهميته ما قيل عن التشابه بل يزيد من قيمة ما فيه من أفكار •• ومن هدفه العظيم لبناء المعرفة على أساس يتطابق فيه نظام المعرفة الانسانية مع القوانين الطبيعية المنظمة للكون •

لقد أقام ابن رشد فلسفته على أساس الفلسفة اليونانية وفلسفة أرسطو بالذات فهل قلل هذا من دوره في مسار الفكر العربي والاسلامى III

ومن المؤسف حقا أن يدور هذا النقاش حول مسأله وجود الشبه بين (وحدة المعرفة) وفلسفة صمويل الكسندر دون أن يتطرق الى جوهر الكتاب ذاته •• كذلك ضاع جهد المتحاورين في هذه المسائل الشكلية دون أى اهتمام بمضمون ما قاله الدكتور محمد كامل حسين وما أضافه •• وقد أضاف حقا ، اذ نظر الى نظرية التطور نظرة جديدة في ضوء ما حققه العلم من اكتشافات في علوم الطبيعة والبيولوجيا •• مما يؤكد صحة هذه النظرية •

أما أصالته الحقيقية فتكمن في إيمانه بهذه النظرية إيمانا قويا وتطبيقها كمنهج فكرى في كل أبحاثه تقريبا •

الوادی المقدس • • وحدیث الی النفس

یتمیز هذا الکتاب علی غیره من مؤلفات الدكتور محمد کامل حسین ، ببساطة اللغة وعذوبتها • فلا تکاد تمضي فی قراءته حتی تحس برشاقة الكلمة وعذوبة العبارة وصفائها فتحسب أنه کتاب خواطر سجلها المؤلف فی لحظات التأمل ، دون أن یسبقها تخطيط أو تدیر • ولكنك تفاجأ بعد الفصل الأول أنك قد انزلت الی الأعماق لتسمع وتناقش أخطر مشاكل النفس الانسانية فی علاقتها بالآخرین وبالكون عموما • واذا بك تفاجأ بأن المؤلف یعرض أمامك نظرية جديدة هی خلاصة كل أبحاثه ونظریاته العلمية السابقة •

لكن هذه النظرية الجديدة هی فی الواقع أهم النظریات وأخطرها • كما أنها أكثرها عمقا وغموضا • ولعل هذا ما دفع المؤلف الی تغليفها بهذا الثوب البراق لیحملک علی أجنحة العبارات الرشیقة حتی لا یصدک الملل أو ترهقک المعاناة وراء الأفكار حتی اذا بلغت النهاية دون أن تبلغ الیقین استوقفک فی لباقة عظيمة وفی شبه اعتذار رقیق لیقول لك :

« تحدثت الیک طویلا ، وعرضت علیک أمورا كثيرة تتعلق

بنفسك ، ولم أقف لأسأل من أنت ؟ أما وقد انتهيت من هذا الحديث فأحسب انى فى الواقع كنت أتحدث الى نفسى » •

وبفضل هذه اللبابة النادرة ، قال المؤلف كل ما عنده دون حرج • وناقش أخطر قضايا الانسان وأكثرها اثارة للحساسيات دون أن يحتج عليه أحد • وبذلك نجا من تهمة الكفر والمروق ، وكيف يتهم انسان يتحدث الى نفسه • أو ربما كان هناك سبب آخر وهذا ما يوضحه الأستاذ فتحى رضوان (مجلة الثقافة - العدد ٤٣) •

« فان كتاب (الوادى المقدس) يجب أن تقرأه لا تستمتع بعمل أدبى جيد ، وانما تقرأه بوصفه سيرة ذاتية تعرض هموم وهواجس ووساوس وشكوك ومخاوف وحيرة محمد كامل حسين • وحين تتناوله بهذا الوصف ، يرتفع قدره ، لأنك ستجد فى كثير مما قاله وسجله ، أشياء خطيرة ومصارحات جريئة ، مرت غير مفهومة فلم تثر عليه نائرة المحافظين ، ونجا من تهمة التجديف فلم توجه اليه » •

والواقع ان الكتاب فى هذه الناحية لا يشذ عن كتبه الأخرى الهامة • ففى « التحليل البيولوجى للتاريخ » كان يبحث فى القوانين العامة المحركة لحركة الأحداث التاريخية ، وفى « وحدة المعرفة » شرح قوانين التطور الطبيعى التى تؤدى الى

وحدة المعرفة وتكشف عن الأساس الطبيعي للضمير والفضائل •
وهكذا الأمر بالنسبة للوادي المقدس • انه بحث في كشف الأسس
الطبيعية لتحقيق التوافق بين الانسان وبين نفسه ثم بينه وبين
الآخرين بل بينه وبين الكون حتى « تكون الطبيعة وجسمك
وعقلك ونفسك متوافقة توافقا موسيقيا تكمل به السعادة
الانسانية » •

ولكن كيف تتحقق هذه الحالة النفسية ، فهذا ما تبحثه
نظرية الوادي المقدس • وهي تستند أيضا على ما اكتشفه المؤلف
من قوانين التطور البيولوجي وكما فعل في شرح نظرياته الأخرى،
فهو يفعل نفس الشيء هنا وبنفس الأسلوب بادئا بالبسيط ثم
المركب فالمعقد وهكذا حتى تبلغ الأمور غايتها • فما هو الوادي
المقدس هذا ؟

يقول المؤلف : « هو البقعة من الأرض ، وهو القطعة من
الزمن وهو الحالة النفسية التي تسمو فيها فوق طبيعتك وطبيعة
الأشياء ، فوق ضرورات الحياة ، بل فوق حدود العقل » •

وتحملك هذه العبارات السهلة المطاطة الى ما بعدها
وما بعدها دون أن تمسك بمعاني محددة • ويظل هو يسترسل
« هو حيث يكون ايمانك قويا لا يشوبه شك • وحيث يحتوى
قلبك حب عميق خال من كل غل أو حقد • • وهو حيث تهتدى

للحكمة والتفكير المستقيم » • وهكذا الى أن يقول « الوادى
المقدس ، مملكة السماء ، الجنة : أمور ثابتة فى النفس الانسانية
أصولها الايمان والخير والحكمة ، وميادينها الدين والحب
والعلم » • وهنا تلمح لأول مرة أركان هذه النظرية
السيكولوجية الجديدة •

وأول هذه الأركان أن أصول الجنة أو مملكة السماء
ليست خارج النفس بل من داخلها ، وثانيها أن هذه الأصول
ثابتة وهى الايمان والخير والحكمة ، وثالثها أن الطريق المفضى
اليها هو الايمان والحب والعلم •

وحين تصبح الجنة داخلنا فما عسى أن يكون الايمان ،
وما غايته وما هو مفهوم الدين الذى يشير اليه المؤلف ؟

وهذه أسئلة لا بد أن تدور بخاطر كل من يقرأ هذا
الكتاب • وحتى تفهم جيدا ما يعنيه المؤلف ، لا بد أن تعرف
موقعك من الوادى المقدس • وحياتك بالطبع أعظم ما يعينك ،
ولكنها فوق ذلك جماع القوى التى عملت فى الانسانية منذ
الأزل • وليست الانسانية ما عمل الناس وما يعملون مجتمعين •
وانما الانسانية تتبلور فى حياة كل فرد ، وفى حياتك أنت خاصة ،
والعوامل التى تطهر بها الناس قديما تصلح أن تتطهر بها لو هيات
لنفسك سبيل الطهر ، وهذا ممكن ميسور ،: فالتطهر كما يقول

المؤلف نزعة فطرية في الانسان . لأن الانسان ليس من طبعه الشر . وهو يستطيع بمجاهدة النفس أن يصل الى حالة الطهر . والطهر « ليس معنى خالصاً . ولا هو عمل خالص . وانما هو معنى في النفس يتمثل أعمالاً » لكن الأعمال الطيبة لا يتم بها وحدها طيب الحياة ، الا أن تكون الحياة صادقة .

« والصدق هو أن تتسق الحياة وقوانين النفس البشرية . وقانون النفس البشرية الذي يفسد كل حياة لا تقوم عليه هو قانون التطهر . واذا لم يكن قوام حياتك الطهر فلن يقوم عوجها ما تكون قد حققت من أعمال طيبة » .

ومعنى هذا ان تتبع عواطف الخير والحب والايمان من داخل النفس ، فتكون مشاعر الانسان صادقة ، ومواقفه متسقة مع طبيعته فلا يناقض ولا يخدع ولا يساير الشر أو ينهار أمامه . ولعلنا نجد توضيحاً أكثر لهذا المعنى فيما قاله الأبيات شنودة في إحدى المناسبات « أستطيع أن أقول ان عمل الخير ليس هو الخير . . وانما الخير الحقيقي هو محبة الخير داخل القلب . فالانسان قد يعمل الخير مضطراً . وقد يعمل الخير خوفاً . وقد يعمل الخير تقليداً . ولكنه لا يكون خيراً في الحقيقة انما الانسان الخير هو الذي يحب الخير في عمق أعماقه حتى ان لم يعمل تصير نيته له عملاً والأعمال بالنيات . الاجبار للخير يكون عبيداً يخضعون للسلطة . أما الخير الاختياري

فيكون قديسين • ان يوسف الصديق كانت الخطيئة أمامه سهلة وتلح عليه •• وكان ربما يعاقب ان لم يرتكبها ، ولكنه فضل ألا يخطيء لأن محبة الخير في قلبه كانت أقوى من اغراءات خفية • هذا هو الانسان الصالح الذي نريده « (١) » •

وهذا النوع من الصدق هو الذي يعبر عن الفطرة السليمة التي جبل عليها البشر كما أشار الدكتور محمد كامل حسين ، وهي مناط تماسك الانسان النفسي والعقلي وشرط سعادته لكن مطلب الصدق دائما يحتاج الى ظروف مواتية حتى يعتاد الناس على الصدق وهذا يأخذنا الى مشكلة الحرية وشرط توافرها بالقدر الكافي لنمو الانسان نموا طبيعيا في أي مجتمع •

وهذه النقطة قد تعرض لها المؤلف في مكان آخر واعتبرها أساس حرية الضمير لكن المؤلف هنا تبعا لمنهجه الطبيعي يبدأ من الانسان الفرد ، ويرى أن الحياة الصادقة تقوم على السلم • بين الانسان وبين نفسه ويحققه الايمان • والسلم بين الانسان وبين الأقربين ويحققه الحب ، وبينه وبين العالمين ويحققه الخير •

وكي ينجح في جهاده هذا لابد له من أن يبدأ باقامة السلم بينه وبين نفسه أولا قبل أن يستقيم الأمر بينه وبين الناس •

(١) من كلمة البابا شنودة الثالث في مؤتمر القيادات الدينية سنة ١٩٧٧ •

(٢) في « قرية ظالمة » •

وهنا نجد انه يلقي على الفرد كل المسؤولية رافضا كل التعلات
فيقول : « ولا تخذعن نفسك اذا أصابك ما تكره فتقول هذا
من ظلم الحياة وقسوة الزمن وتحكم القدر وتخبط الحظ .
عبارات فيها من الغموض ما يدعو الى الحيرة والقلق . ولو عدل
الناس عن المجهول الى المعلوم لاستقام تفكيرهم في هذا
الأمر » .

فكل مشاكل الانسان ، مشاكله النفسية والاجتماعية
والسياسية لا تستعصى على الفهم ، وردها الى المجهول هو خطأ
كبير . وهروب من مواجهة النفس مواجهة شجاعة تستوحى
صدق الفطرة الانسانية . ولو ابتدأ كل انسان بمواجهة نفسه
على هذا الأساس ، فقد عرف طريق الهداية أو طريق التطهر .

والتطهر هو قانون النفس الانسانية ، ويحققه الايمان
والحب والخير . « لكن خير ما في الايمان هو الايمان نفسه مهما
يكن ما تؤمن به . وخير ما في الحب الحب نفسه مهما يكن ما تحب
ومن تحب ، وخير ما في المعرفة المعرفة ذاتها مهما يكن موضوع
المعرفة » . وهذا الكلام يؤكد ان الوادى المقدس هو حالة
نفسية تتناغم فيها النفس مع الحياة وقوانين الكون . وهذه
الحالة النفسية تأتي كتعبير عن نزعة فطرية هي نزعة الايمان
وحب الجمال وحب الحكمة . هي ممارسة لنوازع أو نزعة

طبيعية في أعماق الانسان ، وليست استجابة لدعوة دينية
أو انسانية آتية من خارجه ، بل استجابة لعامل داخلي بحت .

ومن أجل هذا لم يشترط المؤلف طريقا بعينها لتحقيق
التطهر أو الهداية . بل أشار الى عدد من السبل المختلفة لعل
أمثلها سبيل الدين . لكنه ليس السبيل الوحيد . فمن
الناس من لا يطمئن الى الايمان بالغيب ، وقد يحصل على
الهداية عن طريق الحب والجمال . ومن الناس من « لا يتطهر
الا بما يتفق والعقل فيكون طريقه الى الخير الحكمة وسداد
الرأى والتفكير المستقيم . وهذا طريق أفاضل الوثنيين وبعض
المفكرين المعاصرين » .

ومن العيب أن يحاول البعض فرض سبل محددة للهداية
أو الخير ، لأن هذا الفرض يتعارض مع شرط تحقيق التطهر
النفسى وهو يتم طواعية واختيارا . فالخير كما يقول المؤلف
ليس شيئا محددًا بل هو ما ترضى عنه نفسك رضاء تاما حين
لا يؤثر فيها عامل خارجى من أى نوع . والشر ما تعمله ثم تلتبس
العذر عنه . هذا عمل شرير مهما حاولت أن تستره بالمبادئ
السامية أو تبرره بالدين نفسه . « فترتكب فى مسيله ما لا ترضاه
نفسك » .

« ومن الخطأ أن تحدد للناس طريق التطهر ترغيمهم عليه
وان خالف طباعهم ، ومن الخطأ أن تحدد للناس صورا بعينها

للتطهر • فالناس يتطهرون كل على شاكلته بالايمان أو بالحب
أو بالحكمة •

ولاشك ان هذا المفهوم الجديد لنزعة التطهر الانساني
يقطع السبيل على جماعات التطرف والارهابيين من كل لون
الذين يتسترون بستار الدين أو المذهب الاجتماعى لقهر الآخرين
واضطهادهم • والمؤلف هنا يهدم كل أساس لمزاعمهم فى هذا
السبيل • ولعل فى تقسيمه الجديد لأهل الأديان الثلاثة ما يؤكد
هذه النتيجة •

اختلاف الأديان واسبابه :

يقرر المؤلف أن « الأديان تنبع من أصل فطرى واحد »
وهذا ما تؤكد نظريته ولهذا يتساءل فى حذر دقيق « وإذا كانت
غايتها واحدة ووسيلتها واحدة ، وإذا كان الحق فيها كلها قائما
ففيم اختلافها وتطاحن أهلها وتقاتل المؤمنين بها » •

وهذه هى المشكلة التى يتصدى لها المؤلف بالدراسة
والبحث الآن : يقول الدكتور كامل حسين « الخلاف بين أهل
الأديان اختلاف فى التركيب السيكولوجى للناس » • وبناء
على هذا ، فإن مظاهر الدين تختلف باختلاف موقفنا من الله •

وموقفنا من الله تجدده عوامل ثلاثة هى الخوف أو الحب

أو الأمل • وقد تغلب احدي هذه العواطف على غيرها في النفس
الواحدة ، تبعا لمزاجها الخاص بها •

فإذا كنت ممن يدفعهم الى الخير أو يمنعهم عن الشر
الخوف من الله وعقابه فأنت موسوى مهما يكن الدين الذى
تدين به •

وإذا كنت ممن يدعوهم الى الخير حب الله ويدفعك الى
تجنب الشر حب الناس الذين يحبهم الله فأنت مسيحي مهما يكن
الدين الذى تدين به •

وإذا كان الذى يدفعك الى الخير أملك فى الله والرغبة
فى الجزاء الأوفى والنعيم المقيم فأنت اسلامى مهما يكن الدين
الذى تدين به •

ثم يقرر المؤلف أيضا ان « هذا التقسيم أقرب الى فهم
الواقع من تقسيم الناس الى يهود ومسيحيين ومسلمين » •
ثم يحاول أن يزيد الأمر وضوحا فيضيف :

« من المسيحيين من هم موسويين يؤكدون الخوف من الله
ويتبعون أوامره ويتقدسونها حرفيا • بل منهم من يرون ان عليهم
أن يطهروا الناس بالقوة وأن يحملوا الناس على العقيدة الصحيحة
ولو بالقتل والتعذيب (محاكم التفتيش) • هؤلاء موسويون

لنفسا • ولعلنا لا نخطيء اذا قلنا انهم يوشعيون وهم يخسبيون
أنهم مسيحيون » •

« ومن المسلمين من هم موسويون بطبعهم كالخوارج
الذين كانوا يؤمنون بالعدل مهما يكن في تحقيقه من قسوة ،
يطيعون أوامر الله كما يفهمونها ، ولو خالفت روح الدين مخالفة
واضحة »

« ومن المسلمين من هم عيسويون (مسيحيون) في طبيعة
مزاجهم ، فالشيعة يشعرون أنهم في حاجة الى شهيد يقدسونه ،
يعتقدون انه مات في سبيلهم فهم يحبونه حبا يدفعهم الى حب
من يحبون الشهيد » •

ثم ينتهي المؤلف الى نتيجة هي ان هذا التقسيم يساعد على
دراسة « تاريخ التطهر الانساني على أنه وحدة متكاملة ظاهرها
فيه خلاف كبير وباطنها متسق اتساقا عميقا » •

ومن المؤكد ان هذا التقسيم الجديد لفئات المؤمنين لن
يرضى القوى المحافظة أو الموسويين من أهل الأديان أبدا • كذلك
فان موقفه المتسامح مع الفكر الوثني الباحث عن التطهر عن
طريق الحب والجمال ، أو مع الالحاد الذي يرى فيه بذرة
الايمان وان بدا عدوا للايمان وللإيمان بالله ذاته • كل هذا
لا بد أن يثير ثائرة البعض وقد يذهب بهم الى حد القاء التهم
وتحديد نصيب هذا المؤلف الشجاع من عذاب السعير •

ولعل المفهوم الجديد للنزعة الديشية هو الذى جعل الأستاذ
فتحى رضوان يظن انه يدعو الى دين جديد • ولا شك ان
دراسته لهذه النقطة بالذات تستحق ان تقف عندها بعض الوقت •
فى (مجلة الثقافة عدد ٤٣) كتب يقول :

« ولعله قد وضح لك أن الحديث فى (الوادى المقدس)
وان كانت له سمات الحديث عن الدين ، حتى يبدو لك دعوة
الى دين جديد •• الا انه لا يقتصر على الدين ، وان لم يستبعده
قط ، فهو يرى الدين وسيلة من وسائل الانسان للوصول الى
الوادى المقدس ، بل انه يرى ان الدين ، هو الوسيلة المثلى
لهذا الاهتداء ، لأنه يقول صراحة « وان كانت القوى التى تؤثر
فى النفس كثيرة ، فان اهداها وأقواها وأكثرها شمولاً وأقربها
الى الطهر هو القدرة الالهية ، والايمان بغير الله لا يرضى النفس
المستهدية حقاً ، لأنه لا يعينها ولا يحميها من الضلال الا فى قليل
من الأمور والى أمد قصير وعلى ضعف واضح • والرضى النفسى
وحده هو الدليل ان الاهتداء بالله حق » •

ويمضى الأستاذ فتحى رضوان قائلاً : « وقد تسأل نفسك ،
اذا كان هذا هو اعتقاد صاحب كتاب (الوادى المقدس) فلماذا
لم يدر حديثه مباشرة عن الدين بعامة ، ثم عن الدين الاسلامى
بخاصة » •

« والرد على ذلك تراه واضحاً ، ولكنك لا تقرأه فى لفظ ،

ولا في جملة ، اذ هو شائع في فصول الكتاب كلها ، تراه من خلال الأفكار التي تنتشر فيه » .

« فهو أولا ، يرى ان الدين وسيلة الانسان المثلى للاهتداء ولكنه لا يصم ولا يدفع وسائل الناس الأخرى ، لهذا الاهتداء ، الذي يرمز اليه بالوادي المقدس ، حتى ولو كانت وثنية » .
وثانيا ، يعبر عن تحفظات فريق كبير من الناس ، على بعض ما يدعو اليه الدين ، وما يخرج صدر المتدينين الذين لا يحبون ان يعطلوا عقولهم وهو يورد التحفظات ، في صورة تساؤل منك أنت أيها القارئ لا منه هو الكاتب . وهو يوردها لا لتركها معلقة ، بل ليفندها ويوهن منها ، لأن شكوكه ليست نهائية ، بل هي شكوك مقرونة برفض الشك أو بالشك في الشك ، وبالعجز عن الوصول الى اليقين » .

« وهو ثالثا ، يفر وينجو من القلق المعضب ، والشك المقلق الى دين ، مجرد خال من الطقوس برىء من الجزئيات والعناصر التي لا يقبلها عقله ولا يسلم بها » .

« وأخيرا ، هو شديد التسامح ، مع الأفكار والمعتقدات التي لا يرضاها ولا يسلم بها ، وفي مقدمتها بطبيعة الحال الالحاد . فهو لا يرى الالحاد ، كما يراه ، أكثر المؤمنين المتدينين كفرا يستحق صاحبه اللعنة والطرده في الدنيا ، والجحيم والسعير

في الآخرة بل يراه أسلوبا من أنساب محاولات الانسان الى
الاهتداء ، ففي الالحاد - بذرة الايمان - وان بدا عدوا للايمان
بالله ذاته » •

ولاشك ان الذي يقوله الأستاذ فتحى رضوان صحيح
بالنسبة للكتاب ، فهو بحكم قربهِ للمؤلف و صداقته له يعرف ان
محمد كامل حسين يناقش مشاكله وشكوكه الخاصة بالدين
ويجتزئ من كتابه الفقرة التالية :

« ولا يغرنك ما تظن في نفسك من الحاد أو تفكير حر -
فأغلب الظن انك لست ملحدا ، ولا كافرا ، وانك تؤمن بشيء
ترتاح اليه نفسك ، وسيتبين لك أن نفسك لا ترتاح حقا الى
ايمان شامل قوى الى حين تؤمن بالله • وان الخلاف بينك وبين
المؤمنين اختلاف في التعبير عن الايمان وهو اختلاف في المظهر
لا يدل على خلاف في جوهر الايمان ، وانك في حقيقة أمرك
لا تكفر بالله وانما تكفر بما يقال لك عن الله » •

ويعلق الأستاذ فتحى رضوان على ذلك بقوله : « هذا
الكلام يضاع في صيغة المخاطب ، والحقيقة انه كلام كامل حسين
لنفسه ، فانه اذ يقول : انك في حقيقة أمرك لا تكفر بالله ، وانما
تكفر بما يقال لك عن الله • هو يعنى نفسه •

ثم يمضى تعليقه « وهذه واحدة من المسائل التي تخرج

تفكير كامل حسين ، فتجعله لا يقبل الدين التقليدي بقضيه وقضيضه ، ويرى أن من حقه ، أن يرفض بعض هذا الدين ، ثم يحس بشيء من هذا الرفض ، فيلوذ بالوادي المقدس : ليعبر عما يرتاح اليه من الدين . وما لا يرتاح اليه ، ولو استطاع ان يصرح بذلك لفعل ، ولدعا الناس الى الدين الخالص أو الدين كما يراه خالصا ، وان بقي مؤمنا بالله المسلمين ، وبجوهر دينهم، وبرسول الاسلام ، وبسنته ، وهذه محنة عبر عنها في الوادي المقدس ولا يمكن الاتفاف به ، الا في هذا الضوء » .

وهذا الكلام الأخير للأستاذ فتحي رضوان ، لأشك يزبدنا معرفة بمعاناة المؤلف ، لكن حصره لكتاب « الوادي المقدس » في حدود التعبير عن محنة هذا العالم الجليل يحوله الى مجرد ترجمة ذاتية أو محاولة لتبرير المواقف والأفكار ليس الا . وهذا الفهم للأسف يهبط بقيمة هذا الكتاب الخطير كما يقول هو نفسه ، ويدل على أن الأستاذ فتحي رضوان قد اختلط عليه الأمر ، ولم يتنبه الى القانون الطبيعي الذي يفسر به كامل حسين ظاهرة التدين كنزعة طبيعية في الانسان تتوافق مع قوانين الكون .

كما اكتشف كامل حسين في « وحدة المعرفة » ان قانون الكبح في الكائنات الحية يعطى الأساس الطبيعي للضمير ويفسر وجوده ، فهو هنا يرى أن قانون الاستقطاب وهو أحد القوانين الكونية هو نفسه أساس الاهتداء أو التطهر في النفس البشرية .

فإن كان قانون الكبح البيولوجي هو قانون الضمير فإن قانون الاستقطاب الطبيعي هو قانون التطهر والتطهر هو قانون النفس البشرية الذي يقودها الى السلم والى الوادى المقدس . وهذه هى القاعدة التى يقيم عليها نظرية « الوادى المقدس » ، وهدفها حل مشكلة التوفيق بين حياة الانسان وضميره وعقيدته . فما هو هذا القانون وكيف يعمل ؟

التطهر :

يقول المؤلف « ان التطهر قانون النفس البشرية الأكبر . لا تطمئن اذا أغفلته ، ولا تستقر ان حادت عنه . فهو أصل من أصول كيائها السليم . بل هو قانون نفسى له أصوله وغاياته ووسائل تحقيقها . والتطهر مظهر من مظاهر قانون كونى عام هو الاستقطاب .

قانون الاستقطاب :

يقوم الاستقطاب على أمرين كما يقول المؤلف :

الأول : وجود قوة كونية قادرة فعالة « كافية » للتأثير فى الأشياء المهيأة لقبول أثرها هذه القوة تتجه بالمستقطب الى القطب . وهى خارجة عن الشئ المستقطب .

والأمر الثانى : هو وجود صفة فى هذا الشئ المستقطب تجعله قابلاً للتأثر بالقوة الموجهة الى القطب .

والاتجاه المباشر بين القطب والمستقطب هو محور الاستقطاب ، وقوانين الاستقطاب متشابهة وان اختلفت مظاهرها ، ودراسة هذه القوانين في غير الانسان تبين لنا القواعد الكبرى التى تتحكم فى التطهر الانسانى من حيث هو استقطاب نفسى •
والاستقطاب اوضح ما يكون فى الابرّة المغنطة • فهى تتجه الى القطب الأرضى اذا علقت من خيط أو وضعت على شىء يطفو فوق الماء •

وهى بذلك تدل على وجود القطب وتتأثر به • وفى هذه الحال يكون القطب ثابتاً أبداً وقوته لا تتغير ، ولكن تأثر الابرّة به يتغير قوة وضعفاً وان ظل الاتجاه ثابتاً ، على قدر ما فى الابرّة من قوة استقطائية وتزيد قوتها كثيراً ويقوى استقطابها اذا عولجت بما يقوى القوة الكامنة فيها •

ويعوقها عن الاستقطاب ألا تكون لها حرية التعبير عن هذه القوة • كذلك تتأثر الابرّة بوجود قوة ممغنطة • عند ذلك تنحرف من محورها •

والاستقطاب فى الكائنات الحية أكثر تعقيداً وأصعب تحليلاً ، تتم به فسيولوجيا النبات على أحسن وجه ، وتتم به بيولوجيا الحيوان على أحسن وجه • وليس ما يمنع أن يكون الاستقطاب صفة تتم بها سيكولوجيا الانسان •

ومظهر الاستقطاب في النبات هو نموه رأسيا الى السماء
مهما يكن سطح البقعة التي ينمو فيها • ووسيلته جهاز معقد
يجعله قابلا للتأثر بالجاذبية ويمنعه أن يحيد عن الاتجاه الرأى •
وفي هذا عامل كوى خارجى وصفة فى النبات تجعله قابلا للتأثر
بهذا العامل ، واستقطاب النبات يدل على وجود الجاذبية •

ومظهر الاستقطاب فى حياة الحيوان هجرة الطيور فى وقت
معلوم حيث تتجه فى هيئة معينة الى حيث الدفء لتتم دورة
حياتها ، وبدفعها الى ذلك فطرة كامنة فى تكوينها ، يقابلها قوة
كونية خارجة عنها قادرة على أن تؤثر فى جهاز فيها مهيا لهذا
التأثير •

وهكذا يتبين لنا أن هناك عاملين يعملان فى حياة الكائن
الحى : قوة خارجة عنه تستطيع أن تؤثر فيه ، وصفة كامنة تجعله
قابلا لهذا التأثير •

وأغلب حالات الاستقطاب التى نعرفها يقينا يكون فيها
القطب أمرا كونيا عاما لا يتغير • وهو دائما خارج عن الشئ
المستقطب ، وكذلك محور الاستقطاب يظل ثابتا • وانما التغير
يكون فى صفات الشئ المستقطب ، وفيما يحيط به من قوى
يشتد بها استقطابه أو يضعف ، ويستقيم بها اتجاهه أو ينحرف
عن محوره الطبيعى •

قوة الهداية وقابلية الانسان للاهتداء :

ثم ينتقل المؤلف الى الانسان فيقول : « كذلك لا تتم حياة الانسان من حيث ان الانسانية هي ما يرتفع به الانسان عن الحيوان الا بعاملين » :

✳ قوة عليا خارجة عن الانسان تهديه الى ما تتم به انسانيته .

✳ وصفة فطرية فيه تهيئه لهذا التأثير .

هذه القوة الهادية التي تتأثر بها النفس الانسانية ، حين لا يعوقها عائق ، والقطب الذي تتجه اليه كل نفس ارتفعت عن مستوى الحيوانية البحتة ، وهو مصدر الخير ، وهو سر كل تطهر ، هو الله .

هذا هو القطب وبينه وبين النفس البشرية محور استقطاب هو الصراط المستقيم ، وهو ما يصل بين الله وبين النفس البشرية حين تتجه الى الخير المطلق . حين يتهاى لها حرية التعبير عن فطرتها .

أما المستقطب في حالة التطهر الانساني فهو النفس البشرية ، والناس يختلفون في تقديرهم طبيعة هذه النفس . فمنهم من يرى الشر أصلاً في طبع الانسان ، وآخرون يرون ان الانسان حيوان ارتفع الى الانسانية حين عرف الحلال والحرام . وهذان

المذهبان متناقضان في الظاهر كما يقول المؤلف واختلافهما يرجع الى اختلاف الغايات التي يرجوها أصحاب كل رأى • هؤلاء يبدءون من الله ويصلون الى الانسان ، وأولئك يبدءون من الانسان وليس ما يمنع ان يصلوا الى الله •

ويتضح الخلاف بينهما حين نبحث الأساليب التي يتبعها أصحاب كل رأى في الدعوة الى الخير •

فالذين يرون أن العصيان أصل في الطبيعة البشرية يدعون الى الخير عن طريق الطاعة • والذين يظنون ان الانسان طيب بطبعه الا أنه يحيد به عن الحق عامل من عوامل الشر يرون أن أهدى سبيل هي أن تقوى في الناس دوافع الخير وموانع الشر •

التطهر بالدين :

وهذا يتحقق عن طريق التطهر • والتطهر ارتفاع النفس عن الطباع الحيوية البهيمية • والدين هو أقوى سبيل لتطهير النفوس والتدين هو استقطاب النفس لقطب الخير المطلق وهو الله •

وأركانه ثلاثة : نفس مستهدية ، وقطب يستهدى ، وصفة في النفس تهيئها للتأثر بقوة القطب ، هذه الصفة هي الايمان •

والدين هو جماع هذه الأمور الثلاثة فهو ظاهرة كونية نفسية •

والبحث في التطهر بالدين يشمل مباحث ثلاثة :

١ - مبحث في طبيعة النفس الانسانية .

٢ - مبحث في القدرة الالهية .

٣ - ومبحث في الايمان من حيث هو الصلة بين الله
والانسان .

وهذا ما سأحاول ايجازه فيما يلي :

ويبدأ المؤلف فيقرر ان الطبيعة البشرية في أول أمرها تكون
غفلا غير ذات لون خاص . ثم تدب فيها روح الاستهداء وبذلك
تصبح نفسا . حتى اذا اهتدت فعلا كان لنا أن نسميها ضميرا .

واهتداء النفوس فطرى خلقى ، أما ضلالها فمكتسب يأتيها
من عوامل خارجة عنها طارئة عليها . وليس من طبيعتها ان تتجه
نحو الشر كما ان الابرّة الممغنطة لا يمكن ان تتجه الى غير القطب
الأرضى ما لم تعمل فيها قوى خارجة عنها .

والعيب الخلقى في النفوس لا يكون الا ضعفا في قدرتها
على الاهتداء ومظهر ذلك النفس الهامدة . ويظن أصحاب
النفوس الهامدة أنهم في غنى عن ان يتعهدوا نفوسهم بما يقوى
استهداءها أو يروضها على خير . يحسبون أنهم يستطيعون أن
يهتدوا بالعقل وحده .

وهذا خطأ لأن الطبع هو الذى يحدد أسلوب الناس فى الحياة وأغراضهم منها ، وليست الغايات هى التى تحدد طباع الناس ، ذلك أن التكوين السيكولوجى لكل انسان ثابت أبدا . والعقل لا يغير من هذا التكوين شيئا ، ولا عمل له فى الواقع الا أن يعين على تنفيذ ما تتجه اليه النفس بما ركب فيها من طباع .

والتنزيه يجعل القدرة الالهية من أمور الغيب بعد أن كانت حاضرة محسوسة عند البدائيين .

والناس يختلفون فى موقفهم من أمور الغيب .

* المؤمنون الذين وضعوا لله صفات الكمال كلها كما يرونها فى الانسان ، يطمئنون الى هذا الكمال المطلق . وبه تتطهر نفوسهم .

* والمتشككون الذين يؤمنون بوجود الله ولكنهم لا يؤمنون بالصفات التى يصفه بها المؤمنون ، ويرون انها صفات انسانية بحتة ، يشكون فى ما انتهى اليه بعض المؤمنين من ان الله خلق الانسان على هيئته .

* والملحدون الذين لا ترضى نفوسهم الا بما يفهمون كنهه . لكن البراهين العقلية لم تقنعهم بوجود الله .

ويؤكد المؤلف أهمية الايمان قائلا :

« الايمان قوة كامنة في النفس السوية ترجع الى طبيعة تكوينها ، وهو أصل الصلة بين الله والانسان ، بين القطب والنفس المستقطبة . والايمان هو أن تومن أن أمور الغيب تجري على نحو يمكن الاطمئنان اليه وان تثق ان ما لا تعرف يسير على نظام يشبه ما نعرف » .

وليس المؤمن في حاجة الى من يحدثه عن ضرورة الايمان . أما المتشككون والملحدون فقد يجدون في كلام المؤلف على حد قوله ، حافزا عليه . فالايان لازم لصحة الانسان النفسية . وعدم الايمان بشيء هو مصدر أكثر الامراض النفسية ، وضمف الايمان أكبر أسباب القلق النفسى .

ورغم حديثه عن الله واثباته لوجوده في « وحدة المعرفة » كحقيقة كونية تعلو على الانسان وتحدد تاريخ حياته . ورغم قوله بأن التشكك والالحاد يؤديان الى القلق النفسى الا أنه ينتهى بنا الى نتيجة غريبة هي أن وجود الاستقرار النفسى هو دليل الايمان ، وقاعدة القياس عنده . فالايان بالله هو السبيل الأمثل لكنه ليس شرطا . فالهم هو الايمان القوى بأى شيء ترتاح اليه النفس وتطمئن . وهذا ينطبق مع نظرية الوادى المقدس التى يقول عنها أنها أمور ثابتة فى النفس . فهى جنة أرضية قائمة فى داخل ذواتنا . لا تتعلق برضاء الله أو جزائه ، أو بتنفيذ وصايا أو أداء فروض معينة . فهذا الاستقرار النفسى

الى شيء ما يكفي عنده لتحقيق التطهر • وهذا معناه ان
الخلاص يبدأ من الانسان وينتهى اليه • وهذا ما يؤكد هـنا اذ
يقول : (صفحة ٥٥) •

« اذا كنت غير مؤمن فستقول انك لا تشعر بهذا
الاضطراب ، وان حياتك مطمئة مستقرة الى ما تعلم ، وانه ليس
بك شيء من التشوه النفسى الذى نتحدث اليك عنه » •

اذا كانت هذه حالك فاعلم انك فى الواقع تؤمن بشيء
ايمانا قويا الى حد يرضيك وقد تسمى ما تؤمن به عقلا أو علما ،
وقد تظن انك تؤمن بالطبيعة • كل هذه تعابير مختلفة عن شيء
معنوى غيبى على نحو ما ، تؤمن به فلا تضطرب نفسك • والعبرة
ليست بما تؤمن به ، وهو ما يتعارض الى حد كبير مع المفاهيم
الدينية السائدة • فإيمان اليهود يقوم على أساس انهم شعب
الله المختار ، والمسيحيون يعتقدون ان الانسان بجهاذه الخالص
لا يمكن أن يحقق لنفسه الخلاص ، ولا بد لذلك من معونة
الروح القدس • والمسلمون يعتقدون ان الدين عند الله الاسلام •
وهكذا يبدو واضحا أن لكل ديانة من الديانات السماوية الثلاثة
شرطا مانعا جامعا لا بد من توافره لسلامة الاعتقاد بها • بالإضافة
الى الايمان بالله واليوم الآخر وكتبه ورسله وهو ما يشتركون
فيه مسلمون ومسيحيون ويهود •

وقد تجنب المؤلف أن يشير بأي شيء الى تعارضه مع هذه الديانات حتى ينأى بنفسه عن إثارة المشاكل . وهذا هو الحرج الذى عاناه المؤلف وأوضحه الأستاذ فتحى رضوان بقوله : ان المؤلف « يفر وينجو من القلق المعبذب والشك القلق الى دين ، مجرد خال من الطقوس ، برىء من الجزئيات والعناصر التى لا يقبلها عقله ، ولا يسلم له بها » . وربما كان ذلك أيضا هو السبب الذى جعل الأستاذ فتحى رضوان يقرر أن « كتاب الوادى المقدس » يعتبر « من أكثر أعمال الأدباء والمفكرين فى العالم العربى خطرا » .

وظنى أن نظرية المؤلف التى طرحها فى « وحدة المعرفة » وفى « الوادى المقدس » تمثل قبلة زمنية لم يحن وقت تفجرها لأن هذه الكتب لم يتنبه لها أحد أو لأنها مرت غير مفهومة كما يقول فتحى رضوان .

ومشكلة البحث عن دين جديد أو عقيدة جديدة تستوعب معاناة الناس فى عالمنا المعاصر وتفسر تطور نظرة الانسان المعاصر الى الله والى الكون تفسيراً يربحه ويزيد من ارتباطه بالآخرين مسألة مطروقة فى أوروبا وأمريكا ناقشها الوجوديون والطبيعيون بحرية كاملة دون حرج . ومن أشهر الذين تعرضوا لهذه المسائل برتراند رسل وسارتر وبريخت وهم يمثلون أيديولوجيات مختلفة . لكن الأخير جسدها بطريقة ذكية فى مسرحية « المرأة

الطية من ستروان » حيث ناقش الافكار الدينية التقليدية في ضوء المشاكل العصرية ، فاتضح عجز الدين عن مواجهة تعقيدات الحياة العصرية واتتهت المسرحية بنداء وجهه الى الجمهور يطلب اليه أن يفكر فيما نحتاج اليه الآن « هل نحتاج الى انسان جديد ، أو عالم جديد أو الى آلهة جديدة أو أننا لا نحتاج الى شيء على الاطلاق » .

ويفسر احد كبار النقاد الالمان هذه المسرحية على أساس انها تعبير عن المشاكل الدينية في أوروبا المعاصرة حيث توجد اجابات للأسئلة في عقيدة جديدة أو في الالحاد .

ولا اعتقد أننا بعيدون عن هذه المشاكل المقلقة ، بل أن مشاكلنا أخطر لأنها تتمثل في ظهور التيارات الدينية المتطرفة التي تحاول فرض مفهومها الخاص للدين على جميع الناس وهي محنة حياتنا المعاصرة في مضر وفي العالم العربي .

لذلك كان من الطبيعي أن يخرج من بيننا من يهتم بهذه الأمور الخطيرة . وتقدم عالم مفكر في مكانة كامل حسين لمناقشة هذه القضية بأسلوب علمي بعيدا عن التزييف والتبرير والتلفيق، أمر يدعو الى الرضاء والتقدير ، ويدل على أصالة هذا المفكر وصدق موقفه ازاء مشاكل الانسان في وطنه خاصة وفي العالم عموما .

أما ما يحسه من بعض الحرج فهو لا يقلل من هذه
الأصالة كما لا يقلل أيضا من شجاعته الشخصية في طرح ما يؤمن
به ، بل ان هذا الحرج يزكى من أسالته وشجاعته معا لأن حرجه
وشكه نابعان من موقف صدق ، هو أن منهجه القائم على تدرج
القوانين الكونية لا يزال به فجوات قليلة لم يملأها العلم بعد ،
ولم تصل به الى اليقين الثابت حتى الآن . وهذا ما يجعله
يطرح أفكاره في هدوء وفي روية وتساؤل وتجرد حتى لا يدفع
بالشك الى قلب أحد أو عقله في أمر يعتقد به أو يقدره .

ويحمد له أيضا ان مذهبه الانساني أو الطبيعي هذا ،
ان جاز لي أن أسميه كذلك يجذب الايمان بالله ويحض عليه .
و « الايمان بغير الله لا يرضى النفس المستهدية حقا لأنه لا يعينها
على الهدى ولا يحميها من الضلال الا في قليل من الأمور والى
أمد قصير » لكنه لا يسد السبل الأخرى للاهتداء . فالايمان
أيا كان ما تؤمن به وسيلة للتطهر وضرورة لازمة لصحة النفس
لأنه كما يقول المؤلف مادة حرمانية .

الايمان مادة حرمانية :

أي أنه « شيء اذا حرمته تماما أصابك مرض نفسي خطير
من أثر هذا الحرمان ، ولكن قدرا منه وان قل قد يكفي في
صلاح النفس واستقامة أمورها ، وكثير من الملحددين بهم هذا

القدر من الايمان بشئ غيبى وبذلك لا تصيبهم امراض القلق » •

ونصل انى مجمل نظرية الوادى المقدس حين يقون
« ونظرية الوادى المقدس تدعو الى السلم النفسى عن طريق
تقديسك امر عاليا ، وهى وحدها التى يمكن ان يجمع عليها
المتطهرون دينا ، على اختلاف عقائدهم ، بل قد يجمع عليها
المتدينون وغير المتدينين » • (صفحة ٦١) •

وهو يتصدى بهذا المفهوم الرحب للايمان وللتعصب
والتطرف واستغلال الدين فيما لا يليق به •

يقول المؤلف (صفحة ٦٣) « وآثر المتدينين يظنون ان
الاخلاص لدينهم يختم عليهم ان ينكروا كل ما يؤمن به غيرهم ،
ويظنون ان التعصب يدل على قوة ايمانهم ، ويحسبون ان حملهم
الناس على الايمان بدينهم قسرا يقربهم الى الله • وهم يخلطون
بين جوهر الايمان ومظاهره » • ثم يمضى قائلا « وأكثر الشر
عند المتدينين يكون حين تتكون منهم جماعة لها سلطان دنيوى
وقوة فاعلة ، ولكن هذا عيب الاجتماع وليس عيبا فى الدين
الذى يجمعون عليه • ولا ينكر أحد أثر المسيحية فى تاريخ أوروبا ،
ولكن الخطأ أن ينسب ما فى هذا التاريخ من ظلم وضلال
الى المسيحية نفسها » •

وهنا يتضح لنا الأسباب التى تجعله يدعو الى الفصل التام

بين الدين والدولة أو بين الدين والنظم الاجتماعية ، أشار الى ذلك فى « التحليل البيولوجى للتاريخ » وفى قصه « قرية ظالمة » حيث أعطى هذا الموضوع حقه من الدراسة • فهو يدين الذين « يدافعون عن النظم الاجتماعية التى يعتقدون خيرها على انها من الدين ، ولكن النظم تتغير دائما ولا يصح عقلا أن تربط بالدين وهو ثابت أبدا » (قرية ظالمة صفحة ٢٢١) •

وهو هنا يرى ان « أكثر الشر عند المتدينين يكون حين تتكون منهم جماعة لها سلطان دنيوى وقوة فاعلة » لأن ذلك سيدفعهم الى فرض مفهومهم للدين على غيرهم من الناس • وهذا اكراه « ولا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى » كما تقول الآية الكريمة • وكامل حسين يرى ان الاكراه على الايمان بدين أو بعقيدة يؤدى الى عكس المطلوب من الوادى المقدس ويؤدى الى التعاسة الانسانية • يقول (صفحة ٨٨) :

« وقد تهتدى النفوس وهى ضعيفة ومقدساتها باطلة كما هى الحال عند البدائيين • وقد تضل نفوس قوية ومقدساتها حق كما حدث فى محاكم التفتيش • وليس للهدى والضلال معيار الا المعيار النفسى البحت » •

وهذه الهداية لا تتم على خير وجه الا فى مناخ الحرية الكامل حيث تتأكد حرية العقل وحرية الضمير • وهذا يتيح

للفرد أن يعطى ولاءه للجماعة في حدود لا تتعارض مع ضميره ولا تدفعه لعبادة الأوثان المعاصرة التي يراها المؤلف ممثلة في الكرامة القومية ، والوطنية ، والولاء ، والطاعة لأولى الأمر ، وهي أشياء لا ضرر فيها في حد ذاتها الا حين تتعارض مع الضمير أى بأمر الله في الانسان » • وكذلك العقائد الدينية والسياسية والاجتماعية كلها يمكن أن تتحول الى أوثان تطغى على ضمير الفرد وتطفئ نوره ، وتؤدي في ذات الوقت الى تعاسة المجموع •

ولهذا يرى المؤلف ضرورة الحفاظ على حرية الفرد وهذا لا يتحقق في ظل النظم الشمولية والنظم الدينية لأنها شمولية تماما ، وقيام هذه النظم يؤدي الى نوع آخر من الامراض الحرمانية هو غياب حرية الفكر • وهو يرى ان هذا المرض الخطير هو الذي قضى على الدولة العثمانية ، وسوف يقضى على كل دولة تسير سيرتها •

ونخلص من هذا التحليل بأن المؤلف يرى ضرورة توفر الحرية الفردية وحرية الفكر والاعتقاد حتى يتوفر للأفراد جو التعبير الصحيح عن الايمان ، وهو يؤدي الى صحة نفوسهم ويقوى من دور الفرد في كبح جموح الجماعة وقدرتها على ارتكاب الشر • وتجسيد ذلك هو الديمقراطية السياسية والعدالة الاجتماعية •

أزمة الضمير الإنساني

وقصة « قرية ظالمة » تمثل محاولة جادة لدراسة أزمة الضمير المعاصر واكتشاف أسبابها وهذه الأزمة تتبدى في قدرة المجتمعات على ارتكاب جرائم القتل والعدوان ضد الأفراد والجماعات الأخرى باسم الوطنية أو القومية أو باسم الدين والصالح العام اذ تتحول هذه الشعارات الى أوثان يعبدونها الناس ويقدمون في محرابها الذبائح البشرية . وقد لا يكون فيها ضرر حتى تصطدم بالضمير أى بأمر الله عند ذلك يكون الخضوع لها وعبادتها من دون الضمير كفرا أو شركا وضللا .

ومن هنا ينبع تمرد بعض الأفراد على مجتمعاتهم حين يصطدم الايمان الفردى بالشعارات العامة التى يرفعها المجتمع وكثيرا ما يكون التمرد مأساويا فيدفع هؤلاء الأفراد حياتهم ثمنا له .

وفى سبيل الكشف عن جذور هذه الأزمة وتوضيح أبعادها الحقيقية يعود بنا المؤلف قرابة ألفين عام الى الورااء . . . ليحلل لنا أحداث ذلك اليوم المشهود حين أجمع بنو اسرائيل أمرهم أن يطلبوا الى الرومان صلب المسيح ليقضوا على دعوته ، وما كانت دعوته الا أن يحتكم الناس الى ضميرهم فى كل ما يفعلون وما يفكرون فلما عزموا أن يصلبوه لم يكن عزمهم الا أن يقتلوا الضمير الانسانى ويطفئوا نوره ، وهم يحسبون أن عقلهم ودينهم يأمران بما يعلو أوامر الضمير . وفى هذا الذى

أرادوه تتمثل نكبة الانسانية الكبرى » (قرية ظالمة ص ٢) •

لقد كان اليهود أهل دين وكان الرومان أهل مدنية وقانون ولم يحل ذلك كله دون ارتكابهم للجريمة لأنهم تصوروا ان الدين والنظام يعلوان على أوامر الضمير ومن هنا كانت خطيئتهم ومأساتهم ومأساة الانسانية عموما حتى الآن • وكما يقول المؤلف « فالناس أبدا معاصرون لذلك اليوم المشهود وهم أبدا معرضون لما وقع فيه أهل أورشليم حينذاك من اثم وضلال وسيظلون كذلك حتى يجمعوا أمرهم أن لا يتخطوا حدود الضمير » •

ومن هنا يتبين لنا أن المؤلف قد اختار واقعة صلب المسيح ليستكشف من خلالها أزمة الضمير الانساني المعاصر ثم يقدم لنا رؤيته للخلاص • فنحن في مدينة أورشليم وفي تلك الساعات الحاسمة من يوم الجمعة الحزينة حيث يشيع جو القلق والاضطراب والكآبة والترقب •

ولا تكاد تمضي في قراءة القصة حتى نلتقى بعدد من الشخصيات التي شاركت في تلك الأحداث أو التي شهدتها • • والجميع في أزمة تأخذ بخناقهم فرجل الاتهام الذي جمع بالأمس كل قدراته البلاغية ليقنع شيوخ اسرائيل وكهنتها أن المسيح خطر يهدد المجتمع ولا بد من القضاء عليه • • هذا الرجل أصبح اليوم يساوره الشك في صدق ما قال •

وفى طريقه الى دار الندوة يلتقى بذلك التاجر اليهودى
الذى يحاول بالمال وبالذكاء أن يقنع الحداد بصنع المسامير
التي تدق فى يدي المسيح ورجليه . ان الحداد يخشى الاشتراك
فى هذه الجريمة ولكن التاجر يقول « ان أكبر الجرائم اذا وزعت
على عدد من الناس أصبح من المستحيل أن يعاقب الله أحدا من
مرتكبيها » ، ولا يكاد رجل الاتهام يسمع قول هذا الشيطان
حتى يرتعد أيكون هو أيضا ممن يشاركون فى الخطيئة الكبرى
مجزأة حتى لا يدري أحد ولو كان اله بنى اسرائيل نفسه على
من يكون العقاب ، « ويرهقه التفكير فيخرج الى دار صديق
له يسأله : انحن على صواب فى اتهام هذا الرجل وصلبه أم على
خطأ ؟ » . ويرد صديقه : « احتكم الى ضميرك وحده فهو الذى
يهديك » .

ان عقله هو الذى أوحى له بأن المسيح خطر عليهم ، ودفعته
أنانيته لكي ينتهز الفرصة ليظهر بمظهر الرجل الحريص على
المجتمع وسلامته حتى يحقق بغيته فى الارتقاء فى منصبه
أما ضميره فلا يرى على المسيح مأخذا .

وما جرى لمثل الاتهام يحدث مثله للمفتى ، فلا يكاد يجتمع
بهم فى دار الندوة حتى يتراجع عن فتواه « انى لن أفتى بعد
اليوم انهم اساءوا فهم فتواى ، ويريدون أن يقتلوا بها رجلا
لا أرى ضميرى يرضى عن قتله » .

ويحاول أحدهم أن يحذره • لقد آمن الناس بأن صلبه واجب ، ولن يعدلوا عن رأيهم وليس من السياسة أو مصلحة المجتمع أن يتراجع أحد عن هذا الموقف • ويرد المفتى بأنه لا يهتم بأمر العامة أو بأمور السياسة قائلا « إذا كان من رجال الدين من يرى رأى أهل السياسة فذلك انهم يضعون السياسة فوق الدين أو يضعون سياسة الدين فوق الدين نفسه ، وهذا هو الضلال المبين » •

أما حيرة قيافا فتنبع من عدم ايمانه بالقوة واعجابه بالحلول الأخلاقية التي يقدمها المسيح وفي ذات الوقت حرصه على سلامة المجتمع وحمايته من الانقسام وهذا يتطلب صلبه • وبات ليلته مهموما وسار في الصباح الى دار الندوة محزونا لا يدري ماذا يفعل كيف يرى المسيح من الباطل الذي اتهموه به ارضاء لضميره أو كيف يوافق على صلبه حماية للمجتمع الذي يجلس هو على قمته كرئيس لشيوخ وكهنة اسرائيل • لقد فقد ثقته بنفسه وبالشورى التي كان يؤمن بها ويرى الآن أنها قد أصبحت وسيلة (لخلق) الضمير عند الجماعة •

كذلك يتراجع معظم الشيوخ عن قرار صلب المسيح الا رجال المال والتجارة الذين يصرون على صلبه ويرون في دعوته للاخاء والمساواة وسيلة لتجميع العبيد والفقراء استعدادا لثورة ضد المجتمع وحين يعجز منطقهم يهددون الشيوخ والكهنة

بالجماهير قائلين « ان الشعب هائج ولن تهدأ ثأثرته حتى يصلب هذا الرجل » ، ويتسللون الى خارج دار الندوة ليجمعوا الرعايا ويحرضونهم ضد رؤساء الشعب وضد المسيح .

وأحداث القصة لا تستغرق أكثر من ثلاث ساعات وهو زمن المأساة اليونانية . ومن حديث الأشخاص يتكشف لنا ما تم بالأمس وتأتجه التي تظهر اليوم . هكذا يتضح لنا جو المأساة وظروفها . فالجميع في أزمة حادة وسبب الأزمة ان خطأ فادحا قد وقع بالأمس حين أصدروا قرارا اجماعيا بصلب المسيح ، واليوم قد وجدوا أنفسهم في قبضة هذا القرار الذي لا يستطيعون عنه رجوعا أمام حشود الرعايا والغوغاء التي اقنعوها بالأمس بخطر النبي الجديد .

لقد عادوا الى بيوتهم بعد اصدار القرار . . ولم يكذب كل فرد منهم ينفرد بنفسه حتى بدأ يشعر بصحوة ضميره ، وبدأ يرى الأمر على نحو جديد وكيف يتراجع أو كيف يبرره لنفسه أو للآخرين ؟ لقد وضعهم بيلاتس البنطى في مأزق حقيقى .

لقد سلموه المسيح بالأمس ليصلبه ولكنه اليوم يرى أن يطلق سراحه حسب عادته في عيد الفصح . وهو يقول انه لا يجد علة لقتله . وأمام هذا الأمر عليهم أن يتشاوروا من جديد ، ويقرروا هل يطلق لهم المسيح أو باراباس .

لقد قدم لهم يلاطس فرصة عظيمة للرجوع عن خطأ ،
وكان على رؤساء الكهنة وقادة الشعب أن يغتنموا هذه
الفرصة حتى يتخلصوا من تبيكت الضمير الذي يعتصرهم فردا
فردا .. وهنا تلاحظ براعة المؤلف .. فالأحداث تتطور بالحتمية
بما يكشف لنا مأساة العجز عند ذوى الرأى ورجال الدين ..
فلا يكاد يستقر رأيهم على التراجع عن قرار الأمس حتى تحاصر
الجماهير دار الندرة وتتدفق الى مجلسهم وتتهمهم بالخيانة
وتطالب بصلبهم مع المسيح ، وأمام هذا القهر يذعن الجميع .
لقد اقنعوهم بالأمس أن المسيح فتنة تهدد استقرار المجتمع
وسلامه فكيف يقنعونهم اليوم بغير ذلك ؟ !

وهكذا تتكشف لنا مأساة الفرد ومأساة الجماعة فالحقيقة
ثقل كاهل العقلاء فردا فردا . ولكن من يقوى على مواجهة
الجماهير .. من ؟ يقال ان الجماهير لا عقل لها والمؤلف هنا
يرى ان الجماهير لا ضمير لها أيضا . فلو تحدى أحدهم هذه
الجماهير ووقف مع المسيح لكان جزاءه الحتمى هو القتل
فمواجهة الفرد للجماعة يؤدي الى مأساته ومع ذلك فالمؤلف
يشجع على هذه المواجهة ويحرض الفرد على التمرد انصياعا
لأوامر الضمير طالما كانت مصلحة المجتمع تتصادم مع ضميره .
مهما كانت الشعارات المرفوعة عن مصلحة الوطن وحماية الدين
والصالح العام .

• وهو موقف يتضمن دعوة للاستشهاد في سبيل المبادئ .
فخوف الانسان على حياته ومصالحته يدفعه الى الخضوع
أحيانا للمجموع مخالفا ضميره الذى يعتبره المؤلف قبسا من
نور الله وبهذا يكون خسرانه • وماذا ينفع الانسان لو ربح
العالم كله وخسر نفسه ، كما يقول السيد المسيح •

لاشك أن المؤلف قد اختار أسلوبا ملائما لموضوعه فسرده
الأحداث عن طريق الأشخاص من زوايا مختلفة يعد أكثر تأثيرا
وأقدر على إبراز وجهات النظر المختلفة فنحن لا نرى واقعة
الصلب رغم انها الحدث الرئيسى للقصة • وانما نسمع عنها في
حديث الفيلسوف اليونانى الملحد مع الحكيم الماجى الذى رأى
نجم المسيح يوم مولده وآمن به منذ ذلك الحين وهو هنا كثيرا
ما يبرز وجهة نظر المؤلف (ص ٢٣٤ - ٢٣٥) •

يقول الفيلسوف المادى الذى يرفض التسليم الا بما يقبله
العقل : « انى مازلت أبعدما أكون عن فهم حقيقة ما حدث
أمامنا اليوم » •

ويفسر الحكيم الماجى أحداث اليوم قائلا « انى أعلم
من أحداث هذا اليوم ما لا تعلمون • ان الله رافع السيد
المسيح اليه فهو نور الله فى الأرض فلما أبى أهل اورشليم الا أن
يظفئوه أظلمت عليهم الدنيا وهذا الظلام آية من عند الله تدل
على أنه حرّمهم من نور الايمان وهدى الضنير » •

وهكذا تنتهى وقائع الصلب الى هذه النتيجة المحيرة • ذلك لأن « رافع » جال يحتمل التنبؤ بما سوف يحدث ، ويكون حديث المايجى والفيلسوف اما قبيل الصلب أو بعده أو فى ابائه ... وفى هذه الحالة يحقق كامل حسين المواءمة بين آية « ما قتلوه وما صلبوه » وبين « واقعة صلب » لا ينبس عنها بكلمة ، ويكون « رفع » السيد المسيح قد حدث ، بعد الدفن وقيامه من القبر ... وهذا أقرب الى معنى الآية الكريمة « يا عيسى انى متوفيك ورافعك الى » ثم يشير المؤلف بعد ذلك الى عودة المسيح شخصيا بعد ثلاثة أيام ليأمر تلاميذه أو حواريه بنشر الانجيل فى ربوع العالم •

ان واقعة الصلب تمثل حادثا شديدا التعقيد يحفل بالمعاني الدينية والاخلاقية والفلسفية •

ولعل صعوبة فهم هذه الجوانب حال دون عرض مشهد الصلب أمامنا فى القصة مع انه المحور الرئيسى واكتفى المؤلف بتقديمه عن طريق رواية هم شهود عيان لما وقع فى تلك الساعات العvisية ولاشيك انه أسلوب موفق أتاح لنا رؤية هذه الحقيقة من عدة جوانب مختلفة •

فقد اختار المؤلف حيلة ذكية ترمز اليه هى واقعة اعدام الجندي الرومانى وكان هذا الجندي قد التقى بمریم المجدلية بعد توبتها على يد المسيح فعرفه عن طريقها معنى الحب المسيحى

فرفض أن يشترك مع زملائه في محاصرة إحدى القرى ومهاجمتها بل نبه أهل القرية للغزو المتوقع ، فحاكمه الرومان بتهمة الخيانة وتقدوا الحكم فيه بأن ربطوه في أربعة خيول تعدو في اتجاهات مختلفة حتى تمزق جسده •

وهذه القصة الفرعية التي ابتكرها خيال المؤلف تخدم هدفين بالنسبة للحادث الرئيسي فهي تجسيد لمعنى الفداء على مستوى الإنسان الذي ضحى بنفسه كما أنها تأكيد لمسئولية الرومان • فإن كانت واقعة صلب المسيح تجسد جريمة اليهود وهم أهل دين فجريمة تنزيق هذا الجندي تجسد وحشية الرومان وهم أهل مدنية وقانون ، وهنا يتضح لنا عجز الدين والقانون عن انتقاد الإنسان من ثورته المأساوية ضد حقيقة الضمير ما لم يكن الدين والقانون مرتبطين بالحقيقة ارتباط العبد بالسيد كما يقول كينيث كراج (١) • كذلك نجد أن المؤلف يصور التلاميذ في أزمة تبكيت ضمير لأنهم عجزوا عن انتقاد معلمهم وهذا أمر غير مفهوم فالتلاميذ كانوا ينفذون تعاليمه التي ترفض العنف ليتقدم هو نحو الصليب ليكمل جهاده ورسالته من أجل الخلاص •

وفي مقدمة الترجمة الانجليزية لهذه القصة يعلق مستر

(١) مستر كينيث كراج قام بترجمة قصة « قرية ظالمة » الى اللغة الانجليزية وكتب لها مقدمة وافية •

كينيث كراج على أزمة أورشليم فيشير الى أن صيحة الجماهير لبيلاطس التي وردت في الانجيل « خذ هذا الرجل » تحولت من الفرد الى المجموع فأصبحت تعنى « خذ هؤلاء الرجال » . « أصبح الرجل أزمة المجموع وأصبح المغزى الاخلاقى للمشهد حكما بواسطة الانسانية وللانسانية » .

وسحر هذا الكتاب انه يتخذ هذا الموضوع محورا له يستكشفه بحساسية مرهفة ويقدمه وربما لأول مرة عن طريق مفكر ينتمى للعقيدة الاسلامية .

فالفكر الاسلامى يميل الى رفض فكرة صلب المسيح والمسيحيون يحاولون منذ قرون اثبات الصلب عن طريق الأسانيد التاريخية وكتدعيم للعقيدة الدينية التى تؤمن بالصلب كطريق للفداء وكان من نتيجة هذا الجدل ان غمض على الجميع تقريبا المغزى الانسانى لهذا الحادث . وهذا ما يبرزه الدكتور محمد كامل حسين من خلال هذه القصة فهو يقدم تحليلا نافذا لارادة اليهود على صلب المسيح .

وهو يفعل هذا دون أن يتعدى الحدود التى رسمها القرآن ... ولكنه يستكشف الأحداث من جديد فى ضوء النص القرآنى ويكتشف ان واقعة الصلب قد حدثت على المستوى الانسانى أما من هو الذى صلب ؟ فهو لا يصرح ان كان هو المسيح أو شبيه له .

ولعله يجدر بنا ونحن نعرض لهذه القصة الهامة أن نستعرض
معا الآراء التي ترفض موضوع الصلب ونحلل أبعادها لنعرف
الى أى حد وصل المؤلف فى مناقشة هذه القضية ولعل أهم
هذه الأقوال هو ما جاء بالقرآن الكريم فى الآية « وقولهم أناس
قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه
ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لئى شك منه ما لهم
به علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه وكان
الله عزيزا حكيما » .

وهذه الآية الكريمة تتفق فى معناها مع ما قال به بعض
الفلاسفة فى القرن الثانى الميلادى اذ قالوا ان المسيح لم يصلب
وان الذى صلب هو شخص غيره خيل لليهود انه المسيح
وأما المسيح نفسه فقد رفعه الله الى السماء سالما وقد أطلق
المؤرخون على هذه الجماعة اسم « المشبهة » .

وفى القرن الرابع الميلادى قدم الراهب أريوس رأيا مختلفا
يعد نوعا من الاجتهاد الفلسفى فى تفسير آيات الانجيل فيقول
أريوس ان الله لم يتعذب فى المسيح وان المسيح الذى صلب
وتعذب كان بشرا من لحم ودم والجسد مجرد ظل ، مجرد مظهر ،
أما جوهر المسيح فهو روح الله وكلمته والجوهر لا يصلب
ولا يتعذب انهم ما صلبوه الا فى الظاهر فقط أما المسيح الكلمة
فقد رفع الى السماء والمسيح البشر قد صلب على الأرض .

ولكن العامة تتوهم أن روح الله تعذبت في جسد المسيح وان
المسيح صعد الى السماء روحا وجسدا •

وقد رفضت الكنيسة الأبرثوذكسية كلام أريوس واعتبرته
بدعة مدمومة لأنه يفصل بين اللاهوت والناسوت أى بين الطبيعة
الالهية والطبيعة الجسدية للمسيح بينما تقول تعاليم هذه
الكنيسة المستمدة من الانجيل أن المسيح قد صلب وقبر وفي
اليوم الثالث قام من الأموات وصعد الى السماء وان لاهوته
لم يفارق ناسوته لحظة واحدة أو طرفة عين •

وهذه الأقوال على ما بينها من خلاف تتفق جميعا في حدوث
واقعة الصلب فاليهود يعترفون بها في الآية الكريمة « وقولهم انا
فعلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله » فهم يعترفون هنا
انهم قتلوه وهم يعلمون انه رسول الله • فان كان الله قد رفعه
ووضع على الصليب شخصا يشبهه لحكمة الهية فان الجريمة
تبقى تبعتها على اليهود والرومان لأن تديرهم للصلب وتنفيذه
على هذا النحو يعطى الدليل الكافى على انهم رفضوا المسيح
وتعاليمه الداعية الى الحب والسلام •

وفي حدود هذا التفسير القرآنى تصرف المؤلف فهو يقدم
الوقائع السابقة على الصلب كما هى بالضبط فى المفهوم
المسيحى • فاذا تركنا جانبا السؤال عما اذا كان الصلب قد وقع
للمسيح فعلا ، وركزنا على الحدث كشيء كان مقصودا به

المسيح فان المغزى الانساني كله للقرار الذى اتخذه معاصروه ضده ومن أجل صلبه يبقى كما هو لا تشوبه شائبة وهذا ما يذهب اليه مستر كينيث كراج ثم يضيف « ان الشيء المهم هو ان قلة قليلة قبل (كامل حسين) هى التى قامت بمبادرات اسلامية لدراسة التاريخ المسيحى من جانبه الانسانى » •

وعلى الجانب الانسانى يرى الدكتور كامل حسين ان وقائع الصلب تمت • فاليهود وبيلاطس البنطى كانوا يعلمون انهم يصلبون المسيح لا شبيها له ولو عرفوا بالشبيه لتراجعوا عن فعلتهم فحقيقه الصلب بوقائعها على هذا النحو (تشكل مواجهة أخلاقية تنعكس عليها مشاكل الموقف الانسانى بحيث تتيح لنا دراسة الأزمة الانسانية الشاملة) •

فمدينة اورشليم التى يطلق عليها المؤلف اسم « قرية ظالمة » هى نموذج للعالم كله وقيافا وبيلاطس ليسا ممثلين لليهود والرومان فقط بل ممثلين للانسانية كلها حين تخاذلا أمام الرعاع وسلموا المسيح للصلب •

ورغم أن القصة تكشف لنا أيضا عن أسلوب اليهود فى توزيع تبعه الجرائم الكبرى الا انها لا تدين اليهود كشعب أو جنس فهى لا تدين مجتمع بذاته كمنجتمع بل بفعله وهى اداة لكل من ينحرف عن جادة الصواب أو يتنكب لأوامر الضمير الذى هو قس من نور الله • فالمؤلف يرى أن الجرائم الكبرى

تقع تحت دعاوى الوطنية والقومية وحماية الدين أو الصالح العام • وهذه الشعارات تمثل أوثان العصر الحديث لهذا نراه يحرض الأفراد على التمرد عليها اذا تصادمت مع نواهي الضمير.

فالانصياع لهذه الدعاوى وقبولها من جانب الفرد رغبة في منصب أو مجد شخصي يعتبر في نظر المؤلف نوعا من الشرك بالله • فهذه الدعاوى في نظره جميعا لا تبرر وقوع الحرب أو العدوان أو حتى قتل شخص بمفرده والقصة مليئة بالتحليلات الفلسفية والذهنية للاغراءات التي تضلل الأفراد والجماعات وتسبب نكبة البشر وهو يلخص رأيه في المسيحية على النحو التالي :

ان الموسوية ركزت على العدل حين قالت سن بسن وعين بعين أما المسيحية فقد ركزت على الحب والتسامح « فقد لا ينفع الناس ان تهديهم تفصيلا الى الخير بل قد يكون ايجح لو علمناهم الايمان والحب وكبح الشهوة وتركنا عقولهم ان تنظم أمورهم في حدود ما لا يحرمه الضمير » •

ومن هنا تأتي دعوته الملحة لفصل الدين عن النظم الاجتماعية لأن الدين ثابت والنظم الاجتماعية متغيرة بالضرورة وهما أمران لا يجب أن يتعلق أحدهما بالآخر •

وواضح ان رؤية المؤلف للخلاص تقوم أساسا على الحرية الفردية المطلقة حتى يتسنى للضمير الفردي أن يمارس دوره

المؤثر .. لهذا يدعو الى وقوف الأفراد في وجه الجماعة اذا تعارضت دعوى الجماعة مع ضمير الفرد وهي دعوة تفرق في المثالية وتحسن الثقة بالضمير الفردي وحده حين يتحول الفرد الى ديكتاتور يسخر الجماعة لأغراضه .

ومع ذلك تبقى دعوة حرية الضمير على هذا النحو هدفا عظيما يستحق أن يتمرد الفرد من أجله لكن كيف يمكن هذا الآن في ظل النظم غير الديمقراطية حيث أصبحت الدولة تمثل جهازا بوليسيا رهيبا قادرا على كبت الأفراد والفتك في أى لحظة . بمن يتمرد . لكن هذا التمرد في رأى الكاتب هو الوسيلة الوحيدة لخلاص الفرد وخلاص الجماعة من تأنيب الضمير .

انها رؤية أديب مفكر وعالم ممن يشغلهم أمر اصلاح العالم .. ومن أجل هذه الغاية تجول في دروب المعرفة المختلفة بحثا عن منهج شامل لتفسير حركة الفكر وقيام الحضارات .. وكانت له اجتهاداته الخاصة في تفسير التاريخ .

خاتمة

ينفرد محمد كامل حسين بصفة هامة هي أنه مفكر له منهج علمي واضح القسمات .. ومن أجل هذا حصرت دراستي في كتاباته التي تبلور هذا المنهج وتبرزه فقط ، حتى أنني حذفتم فصلًا عن تقديمه للشعر واكتفيت بنشره في مجلة « الهلال » (عدد سبتمبر ١٩٧٨) بعنوان « دراسة جديدة لشعرنا القديم » .

أما منهجه الفكري فهو يعبر عن فلسفة أو رؤية متفائلة تشيخ الأمل في النفس وتملأ الإنسان ثقة بقدراته ومواهبه وبإمكانياته على الإبداع وبناء التقدم وتحقيق العدل والمساواة والحرية . وهو يشرح هذا المنهج في « وحدة المعرفة » قائلا :

« والاصلاح المنهجي الذي ندعو اليه يقوم على أنه حان الوقت الذي نستطيع فيه أن نغير من وضع الهرم المقلوب فنجعل المعرفة هرما قائما على أساس الطبيعيات وهي أساس ثابت ، قائم على البرهان والتجربة ، فيه تكون القضايا عامة غير قابلة للاستثناء ، وفيه يكون الواقع معروفا لا يحتمل الشك ولا يتسع للراء المتضاربة ، وفيه يكون الواقع والمعقول شيئا واحدا لا يقبل الخلاف ثم نقيم على هذا الأساس علوم الحياة على نسقه

وأسلوبه ، فيتحدد بذلك المذهب الحق من بين المذاهب الحيوية
ثم نقيم على هذا كله علوم الانسانيات متسقة في نظامها مع
علوم الحياة فيتبين لنا المذهب الحق من بين المذاهب الانسانية
المتعددة » •

وهو يؤمن بتقدم العلم وسيادة العقل عليه بغرض توجيهه
لخدمة مستقبل الانسان فهو يرى أن تاريخ الحياة العقلية خطا
صاعدا أو رقا مستمرا ويقول في (التحليل البيولوجي للتاريخ)
أن « أثر الحياة العقلية في التاريخ يزيد كلما امتد الزمن » ••
ثم يضيف « ولما كانت الغرائز باقية على ما هي عليه ، وكانت
الحياة الاجتماعية تلو وتنخفض فلن يمضي وقت طويل حتى تطفئ
الحياة العقلية عليهما ، وسيصبح لها النصيب الأكبر في تكييف
تاريخ المستقبل ، وسيسود ذلك المستقبل أقوى آثار الحياة
العقلية وهو المساواة » •

ذلك أنه يرى أن انتاج الأعضاء التعويضية الآن يساعد
الأفراد المعوقين على تكلمة ما أصابهم من نقص كما أن الأجهزة
الالكترونية الحديثة تمكن المعوقين من التعلم والتقدم في كل
مناحي الحياة •• وتحقق لهم المساواة مع الأصحاء ، وسوف
يكون من نتيجة ذلك كله سقوط امتيازات التفوق بين الأفراد
اذ يقول :

« تقدم العلوم يؤدي الى محو فروق التفوق • وهو بذلك

يؤدي الى المساواة بين الناس • وفي هذه المساواة مفتاح تاريخ المستقبل • ومن آثارها ضياع الامتيازات القائمة على التفوق • وسيظل الأفراد قادرين على التفوق على غيرهم من الأفراد في دائرة تخصصهم ، ودون أن يؤدي هذا التفوق الى امتيازات عامة قد لا تمت الى هذا التفوق بأي سبب » •

ومع ذلك فهو يرفض كل النظم الشمولية والديكتاتورية التي تقضي على حرية الفرد وكيانه •• بدعوى سعادة المجتمع لأنه يرى أن من حق كل فرد أن يتمتع بالعدل والحرية •• والنظام السليم هو الذي يوائم بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة » فالفردية الحققة هي التي تقوم على أن كل فرد يجب أن يكون سعيدا ، والاشتراكية الحققة هي التي تقوم على أن سعادة الجماعة هي سعادة كل فرد فيها » •

ومن ثم كان انجياز محمد كامل حسين للديمقراطية الاشتراكية على أساس أنها أقدر النظم على ضمان حرية الفرد وتحقيق العدالة الاجتماعية والاقتصادية أيضا •

مراجع البحث

أولا : مؤلفات الدكتور محمد كامل حسين :

- ١ - متنوعات الجزء الأول ١٩٥١ القاهرة - مطبعة مصر .
- ٢ - التحليل البيولوجي للتاريخ ١٩٥٧ القاهرة - المطبعة العالمية .
- ٣ - وحدة المعرفة ١٩٥٨ القاهرة - مكتبة النهضة .
- ٤ - متنوعات - الجزء الثاني ١٩٦١ القاهرة - مكتبة نهضة مصر .
- ٥ - الوادي المقدس ، ١٩٦٨ - القاهرة - دار المعارف .
- ٦ - الذكر الحكيم ، ١٩٧١ - القاهرة - مكتبة النهضة المصرية .
- ٧ - الشعر العربي والدوق المعاصر ، ١٩٧١ - مطبوعات الاذاعة والتليفزيون .
- ٨ - قرية ظالمة ، ١٩٥٤ - مكتبة النهضة المصرية .
- ٩ - قصص قصيرة :
- فراق - مجلة الهلال - فبراير ١٩٦٢ .
- قصة جريمة شنعاء - مجلة الهلال - مارس ١٩٦٢ .

- أى الطريقتين أهدى - مجلة لهلال - أبريل ١٩٦٢ .
- قوم لا يتطهرون - مجلة الهلال - مايو ١٩٦٢ .
- الطريق - مجلة القصة - يونيو ١٩٦٤ .
- ماء مدين - مجلة القصة - أغسطس ١٩٦٤ .
- الراهبة والعجوز - مجلة الاذاعة - ٣ يناير ١٩٧٦ .
- الاسخريوطى - مجلة الاذاعة - ٣١ يناير ١٩٧٦ .

ثانيا - كتابات حول محمد كامل حسين :

- الدكتور محمد كامل حسين - دكتور ابراهيم بيومى
مذكور مجلة مجمع اللغة العربية وهى الكلمة التى القاها
الدكتور المذكور فى استقباله له عضوا بالمجمع .
- دفاع عن التاريخ - محمود أمين العالم - مجلة الرسالة
الجديدة ١٩٥٧ . أعيد نشره فى كتاب (معارك فكرية)
كتاب الهلال ديسمبر ١٩٦٥ .
- اقتباس ام توارد خواطر - عباس محمود العقاد -
الأخبار ١٩٦٢/١١/١٤ .
- مثل فى التواضع والخبرة والدراسة - عباس محمود
العقاد - الأخبار ١٩٦٢/١١/٢٢ .
- أقسم اتنى ضربت كفا بكف - دكتور زكى نجيب
محمود الأخبار ١٩٦٢/١١/٢٦ . (يدخل المعركة الى
جانب العقاد) .

– تعليق العقاد على رد كامل حسين – عباس محمود العقاد
الأخبار ١٩٦٢/١١/٢٧ .

– الطبيب محمد كامل حسين – دكتور ابراهيم بيومي
مدكور – الهلال مارس ١٩٧٣ .

– وادي محمد كامل حسين المقدس – فتحي رضوان –
الثقافة أبريل ١٩٧٧ .

– نموذج لرجل النهضة – دكتور حسين فوزي في حفل
الاتحاد العلمي المصري لتخليد ذكرى كامل حسين
في ١٩٧٧/١٢/٧ .

فهرس الكتاب

الصفحة

٣	كلمة لا بد منها
٧	تقديم - للدكتور حسين فوزى
١١	مقدمة
٥٣	وحدة التطور التاريخي
٨٧	منهج جديد لوحدة المعرفة
١٦٦	الوادي المقدس . . وحديث الى النفس
١٩٧	أزمة الضمير الانساني
٢١٥	خاتمة

رقم الايداع ٣٨٦٨ / ١٩٨٨
الترقيم الدولى ٥ - ١٧٩٣ - ٠١ - ٩٧٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب

هذه الكتب تكشف لي عن سر من أسرار البلاغة في معنى
الاستعارة بقرينة شخص ما من كوني لعمرو ، أو بعد قليل من
الآن ، وفيما سئلك به وبين كاتب هذه المظاور كتاب
الأستاذ نسيم علي تحليل بلوغ نثر لعمرية عند كامل حسين ،
فكأنني أسمع من لسانه بالفتور والشرح والإيضاح عما فيها من فكر
عظيم ، متفرع في أسلوب هو الجمال بعينه ، فلا عجب
أنه من المعروف ، لا تأتي بحديثي ، وإنما لكم الهدى الشايع
بكم من تحليل طامس ،
(د. حسين فوزي)